

رفیق جنوری

الحب اقوی

روایۃ تاریخیۃ من العصر الاموی

obeikandi.com

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، كانون الثاني ١٩٥٠

جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف

obeikandi.com

مقدمة

ماذا تراني استطيع ، ايها القارىء العزيز ، ان اقول لك في مقدمتي سوى ان هذه القصة تاريخية تدور في فلك من العصر الاموي على عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان . لكنني ربما قصدت فيها الى اكثر من محض تصوير تاريخي قديم ، والى ابعد من مجرد وصف لحوادث جملها اختراع .

يبقى عليك ، ايها القارىء العزيز ، بعد ان تطالع هذه القصة ، ان تقول لي انت شيئاً فيها ، او تقوله لنفسك .

أما هذا الشخص الثالث - بيني وبينك - اعني الشيخ الفاضل داود الانطاكي صاحب كتاب « تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق » - وهو الذي بنيت هذه القصة على اساس من صنعه - فأذن لي ان اسوق اليه بمفردي كلمة شكر . ثم تستطيع انت ان تشاركني ، او لا تشاركني ، في هذا الشكر بعد ان تفرغ من قراءة هذه القصة التي الهمنيها في ساعة نحمدها او تذمها .

رؤيف خوري

الفصل الاول

منذ ان تجاوزت سعاد طور الحداثة فأصبحت صبيّة في الثاني عشر ربيعاً ، تسحب جلبابها الحشن الطويل بين خيام بني عذرة في هذا الحي الهادي المتزوي الذي تمضي فيه الحياة على وتيرة واحدة كطين الذباب المدوّم فوق الماء الراكد ، لم ير طلعتها بشر إلا بوغت بظهور هذا اللون المشرق في هذه اللوحة المكيدة ، فوقف ، ولو هنيهة ، يعطي العين حقها بما رأت من سحر جمال أفرغ في هذا القلب البديع من لحم فتى ودم حار ... قوام ممتلئ ، به قصر يحببه الى النفس كالدمية الصغيرة ، جلس فيه على الصدر كوزان متكبران ، وعينان نجلاوان لامعتان ذكيتان ، كحللتا في الجفنين والاهداب ، بقلم دقيق غمس في ذوب ليل البادية ، ووجه رقيق وشم تحت لمى الشفتين بنقاط زمردية كروؤوس الاعشاب النابتة خضراء ، وأشرب ما شاء من سمرة الشمس الصحراوية لم يستره عنها لثام ولا هودج ... زهرة رخصة ناضرة غريبة في هذا القفر الذي قلّ أن انبت الزهور . فلا بد من يوم قريب يحوم فيه عليها فتیان الحي من بني عذرة يتسابقون الى رضاها ، كل يطمع في استهوائها ولو بذل نور العين او حبة القلب . وما اعظم ما يتولّه العذريون بالجمال ، وما اشد ما يقيمون على العاطفة ، وما أحرّ ما يقولون الشعر بليلاً بالدمع . قنعت بذلك هذه القبيلة

في فقرها ومجاهل باديتها ، فكان هو عنوان ذكرها على التاريخ ،
لا عنوان لها سواه . اذا قيل بنو عذرة قيل الحب النقي الوفي
الحالد والشعر الهيمان الرقيق الواجد ، وإلا لما قيل بنو عذرة .

ولم يكن احد اعرف من ام سعاد بهذا الجمال الذي اسبغه
على ابنتها خالق مبدع . عطية الله حقاً هذا الجمال ! وإلا فمن اين ؟
وام سعاد قطعت شوطاً من العمر تستطيع ان تعترف معه
- لنفسها طبعاً ! - بانها لم تجاور الحسن والصباحه في يوم . وابو
سعاد ، حتى في شبابه ، قبل ان تعمش عيناه ، كان ضاويًا قميئاً ،
بينه وبين الوسامة مسافة اعوام .

وكانت ام سعاد ، على انها عذرية ، ابعد شيء عن تلك الطبيعة
العاطفية ، الشعرية ، السخية في التضحية . كانت لا تنقطع ساعة عن
التفكير في اي الازواج ترضى لفتاتها . تريد غنيًا سرّيًا قميئًا
فاخر الطلعة ، وتقدر المهر بمئات الابل السمان النجيبة . ثم لا تفد
تذكر الاب بهذا الكنز الذي يملكه في فتاته ، وتوصيه ان يحسن
الانتفاع به على حرمان الدهر ، كأنها تخشى ان يفرط به في
غفلة من غفلاته .

اما الاب - وليس هو اقرب من امراته الى النفس العذرية ،
وان يكن اقل منها تحجر قلب - فكان يقول لها : اطمئني ، لا
عليك ... فهو الآخر يدرك جمال ابنته حق ادراك ، ويحرص على
اختيار صهر عظيم الجاه ، فارع الشباب .
ولكن سعاد في غفلة عن ذلك كله .

اذا اخذت الآفاق تعكس بهاء الفجر المشارف ، وبدأت النجوم
تشعب وتنحل ، وسرت نسيمات السحر ، ودبّ ديبب البقطة في

نواحي الحى ، نهضت فخرجت من مضرب الشعر تعين امها واباها على احتلاب الشياه القليلات . ثم تزودت زاد النهار وخرجت بالقطيع الصغير الهزيل الى مرعى قريب ، فلم تعد الا قبيل هبوط الليل لتعين امها واباها شأنها في مطلع الصباح . ثم تتناول العشاء خفيفاً من تمر ولبن . فاذا انعقدت حلقة سمر في اخبار الحب او الفروسية او الكرم او احداث الدولة ، واذا نُقِرت اوتار رباب او ارتفع صوت منشد يواجه وحشة الليل بانشاده الكئيب الرتيب ، سهرت تستمع حتى يرنق النعاس في جفניה ، فتسكن عندئذ الى رقاد عميق لا أرق فيه ولا احلام - أهنأ ما يكون الرقاد .

تلك حياتها : انسجام رتيب من يوم الى يوم . كل ما يكدرها كلمة جافة تقولها لها امها اذا كبّت وعاء الحليب او تفاعست ان تحف الى البئر فتملأ القرية ماء . اما عيون الفتيان التي ترصدها فتختلس اليها النظر اختلاساً ، او تحدق فيها تحديقاً يلتمع بوميض ، فما كانت سعاد لتفهم عنها او تضطرب لها . غير انها حال تغيرت ذات مساء ...

عادت سعاد بقطيعها الصغير الهزيل الى الحى ومعها ابن عمها نصر وغنيات له ليس يصح في اقصى درجات التساهل ان تسمى قطيعاً . وسعاد تكاد كل صباح تخرج من الحى مع ابن عمها او تلقاه في رابعة النهار وهو يرعى غنياته او يرعى بأجرٍ ماشية سريّة من سراة الحى . وكان خروجها معه او لقاءها اياه امرأ معتاداً كالدرّب التي ألفت ان تسير عليها كل يوم ، ذهاب إياب . ولم تكن امها لتنكر عليها من الامر شيئاً .

لكن الأم انفجرت عليها بغتة هذا المساء وصاحت بها :
 - لئن رأيتك بعد اليوم تخرجين أو تعودين مع هذا الصعلوك
 المنتوف فلا عاقبتك أقسى عقاب ... وهزت في وجهها سبابة
 معقدة عوجاء يديس جلدها عليها وتشقق .

بهتت سعاد . لم تستطع ان تفهم لما بدرتها به امها سبباً .
 فنصر هو ابن عمها . وهو الى ذلك موضع اخيها حين عدت
 الاخ ، ورفيق طفولتها ، درجاً معاً في الحي حتى بلغا هذا المبلغ
 من الصبي . ونصر كثير المعونة لها في لم شتات القطيع اذا تفرق ،
 وفي سوقه الى الماء اذا عطش ، وفي توجيهه الى انضر بقاع المرعى
 عشياً . ونصر يمنحها شعور الامان بهذه القوس المعلقة الى كتفه
 والنشابات في جعبته . ويسليها بحكاياته العذبة وبما يوقع على ربابه
 من انغام حلوة ترسب في اذنيها ولا تنفك مترونة في ضميرها . ثم
 هي تحزن لنصر حزناً قلبياً عميقاً . فابوه ، عمها ، قدماء وخلفه
 لام عقت امومتها ، فما لبثت ان تزوجت وتركته يرعى هذه
 الغنيمات ويستأجر لاغنياء الحي ، ويأوي وحيداً الى خيمة شعر
 موحشة بأثخه مهلهلة .

بهتت سعاد ساعة سمعت هذا التهديد من أمها ... اندفعت
 بخطى مرتبكة ورأس اسرع اليه الدم ، فانحازت الى مكان منحذف
 قبعته فيه . والليل يلتف حولها ويتكاثف سواده .

كانت من قبل تفكر احبائاً في هذا الهمال الذي يتعرض
 له نصر بعد موت والده : اهمال من جانب امه التي تزوجت في
 قبيلة اخرى ، واهمال من جانب عمه وامرأة عمه ، ابيها وامها .
 لكن تفكيرها في هذا الامر كان طارئاً عابراً . اما الساعة فخيال

لها . انه تفكير جدي ، قوي الالحاح عليها ، شديد التثبيت بنفسها .
وفي هذه اللحظة اقبل ابوها شبحاً محذب الظهر انشقت عنه
العتمة . وكانت قد انصرفت امها الى ما تجب العناية به من
شؤون . فقال لها ابوها :

— تقمدين ، يا سعاد ، وامك تعمل العمل كله ، أما نخجلين ؟
فنادته الام : دعها ، لا تأبه لها . لقد وجدت ضرورياً ان اغلظ
لها اليوم في الكلام . لئن تكن بنية فهي بعد حين فتاة اكتمل
نضجها . ومع ذلك ، فما زالت تخرج وتعود صباح مساء ، مع هذا
الصعلوك المنتوف ، ابن اخيك نصر . وليس نصر بالطفل الذي لا
يزال اثر حليب امه على شفثيه . وفي تصاحبها واجتماعها عواقب
لا تحمد . فوالله لا لمحتها بعد اليوم تكلمه إلا اذقت العصا طعم
لحمها .

فنظر الاب الى ابنته خلال الظلمة بعينين قطب ما بينهما وقال
لها : قومي ، قومي ، اسمعي امك ، وإياك ان تخافني لها وصية .
فنهضت سعاد بجرعة طواعية عفوية ، تحس دمهـا كله احتقن في
رأسها . ومشت الى امها مطرقة ، تسعفها في صمت ووجوم .
بعد وقت ، وضع العشاء . فقعدت اليه سعاد مع امها وابيها ،
لكن لم يخف أنها كانت تصطنع الرغبة في الاكل اصطناعاً وتقسر
عليه نفسها قسراً . ثم انسلت الى الحيمة ، لم تنتظر ان تنعقد في
الحي حلقة السمر . واضطجعت مغلقة الاجفان تتملق النوم الذي
يفغر بالنسيان كل شيء .

لكنها عبتاً حاولت ان تنام ... لم يُعامل نصر هذه المعاملة ؟

لم يُنبذ نصر هذا النبذ ؟

ومن خارج الحيمة ، خلال ذريرات العتمة ، تسرب الى سمعها صوت امها الاجش يقول لابنها :

- كأني بهذه الصبية غداً تعلقت بهذا الصعلوك ابن اخيك على طول المعاشرة . أفقبله صهراً وهو يتيم فقير اجير ، لا يستطيع دفع المهر ، بل لا يكاد يقوى على اشباعها ، او إشباع بطنه اللقمة ؟ وابن هو من الشباب الجميل الذي يليق بسعاد وتليق به سعاد ؟ أما تراه كأنه قفص من عظام في كيس من جلد شد عليه شداً ؟ لا ، والله ! لن اقبل بعد اليوم ان تقع عليها عينه او تقع عليه عينها . لا ، والله ! ونحن لا شك موفقون الى صهر موفور المال ، عالي النسب ، مرموق الشباب .

فاتاها صوت ابوها مخافتاً في الجواب :

- انك تتكلمين ، يا امرأة ، كأن احداً فاتحك في الامر .

- ولم لا ؟ لم لا يتقدم في طلب سعاد رجل من الحي كأبي فاتك ، يطلبها لابنه فاتك ، بعد ان طلق زوجته الاولى ، ويؤدي لنا المهر سرباً من نياقه العظيمة ، فنقبر الفقر ؟ ام انك تحال سعاداً غير لائقة ؟

- كلا . ولكني لا اعتقد ان هذا يكون .

- غبي ! ثق ان ليس في شباب الحي جميعهم من لا يتطلع الى سعاد . وفاتك من اشد هم تطلعاً اليها . غير انها ، البلهاء ! لا تتريث عند واحد منهم . كفاها ان تغدو وتؤوب بقطيعها مع هذا الصعلوك نصر ، ذاهلة غافلة ، الا عنه وعن ربابته وما قد يلفق لها من اشعار . لا تعي ما اوتيت من جمال وقدرة على الاغواء ، ولا تفكر في مستقبل ينفعنا وينفعها فيه هذا الجمال .

ترتدي الجلباب الحشن وتأكل التمر واللبن . ويلي عليها ، بلهاء !
لكن رويدك حتى اعلمها ...

تلقت سعاد ، في جلاء ووضوح ، هذه الكلمات المنبهة المثيرة
الجارحة التي بثتها امها في سمع ابوها وكأنها حبة تفح فحيحاً
خافتاً في صمت هذا الليل وصفائه .

سمعت سعاد وفهمت كل شيء . وكأن ضباباً كثيفاً كان
منتشراً على بصيرتها ، فانقشع وتمزق .

ولو ان سائلاً سألها قبل اليوم : هل تحبين ابن عمك نصراً ،
لمترددت في الجواب وحارت . فاي شيء هو الحب ؟ كل ما تعلمه
من نفسها انها تحس بالندفاع نحو نصر . الا انها تعهد اندفاعها من
شفقة ورأفة عليه . لكن بعد اليوم ، بل الساعة ، ينبغي لها ان
تنظر مجدداً في زوايا سريرتها . ترى ، أليست تحب ابن عمها نصراً ؟
وقرعت ابواب نفسها احاسيس ذكرت انها لامست وعيها ، حيناً
بعد حين ، منذ اسابيع وشهور ، بل منذ اعوام . تلك الطمانينة
العذبة التي تستشعرها اذا دنا نصر ، وتلك الوحشة اذا غاب ، وتلك
المبالاة بأمره حين تجده مهملًا منبوذاً ، وان كان هو لا يعبا ولا
يكثرث ... يقيناً انها تحبه ، والا فهاذا ؟ تحبه ذلك الحب العميق
القوي الذي ينسج خفية ، في صمت واناة ، خيوط شبكته
الناعمة الدقيقة ، حول القلب ، حتى اذا استيقظ القلب خافقاً مرفرفاً
وجد نفسه في الشبكة .

هو ذاك - لا شك في انها تحبه . ويزيد في حملها على التعلق
به اليوم هذا الازدراء الذي تصوبه اليه امها ويسايرها فيه ابوها .
ومن طبع الحب ان يتحدى الازدراء . ثم ان سعاداً لتستعص

اشد امتعاض مما تنويه لها العجوز . تريد لها زوجاً فارغ الشباب
 رفيع النسب مثيراً . ولا يعني العجوز أهي تحب هذا الزوج ام
 لا تحبه . جل ما تنشده العجوز ان تقبر الفقر ، ولو قبرت معه
 ابنتها ! من قال ان الواد انتهى فقد اخطأ . كان شكلاً
 وصار الى شكل . جل ما تدبر العجوز من امر ان تعقد صفقة
 كاسبة مع صهر تنتفع به وتباهي الناس - صهر على غرار فانك
 مثلاً ، يطلق ويتزوج ، او يجمع عنده بين الزوجات . وماذا الذي
 يمنعه في زعمه وهو صاحب شباب ومال ، والبينات بضاعة بيع
 وشراء ؟

وتقلب ذلك الليل بطيئاً جداً ، ثقبلاً جداً ، على سعاد . فلما
 حان وقت نهوضها خرجت من الحيمة وثبده الحطو ، يتشج وجهها
 الاسمر بالشحوب . ولم تنطق بكلمة ، بل سافت قطيعها الى المرعى
 كعادتها . فسمعت أمها تصبح بها في اثرها :
 - اياك ان تنسي وصيتي لك بالامس . ولقد بكرت مع ابيك
 الى ابن عمك فأوصيناه ان يتركك وشأنك .

فلم تحب سعاد . ظلت تبتعد عن الحي مصرة على صمتها المغيظ .
 الا انها جعلت ، بين حين وحين ، تسرق اللفات لتري هل يقبل
 نصر بقطيعه خلفها . فلم تشهد وراءها سوى وحشة الطريق .
 وجدت فبلغت المرعى الذي اعتادت ان تسرح فيه قطيعها
 وهي تأمل ان يكون نصر سبقها اليه . لكنها لم تجد في المكان
 الا فراغاً ثقل على قلبها . ووقفت توصل نظرها في الجهات على
 غير طائل . وكانت الشمس قد بزغت وجعلت ترشف بأشعتها
 قطرات الطل عن الاعشاب . فأحست كأن صدرها يحف ويظماً

كما نظماً هذه الاعاشيب لوقع الحرارة . وخيل اليها ان شياها
تعبه لا تنطلق ولا يطيب لها المرعى اليوم كطيبه بالامس .
وفجأة بدا لها في البعيد شبح يسعى نحوها عدواً وتطير شملته
وعبائه على الريح . فخفق قلبها لا تدري اغبطة ام ارتباعاً .
فقد أملت ان يكون الشبح ابن عمها . لكنها في الآن نفسه
خشيت ان يكون سواه . ولم تدري لم تمثلت لها صورة ذلك الجلف
البطر فاذك . فانقبضت نفسها انقباضة اشمزاز . ونهأت لتحطيم
جلافته وبطره على صخرة الاحتقار له ولغناه .

غير ان الشبح ما لبث ان انجلي عن نصر بقامته النعيفة ،
يلوح لها بيده ، ويبتسم عن نسق اسنانه البيضاء تحت وبر شاربين
اسوداً ولم يكادا . ولاول مرة رآته بعين الانثى ، فاستغربت ان
تجد في سيائه كل هذه العذوبة والوسامة .

قال لها وانفاسه مزدحمة ومراق انفه الاقنى تختلج : تركت
قطيعي وجئت لالقاك هنية في هذا المكان . ولعل اللقاء لن يتاح
لنا بعد اليوم ، يا ابنة العم .

كلمات كانت تتوقعها فلم تعرها كثير اهتمام . لكنها جعلت
تفرس في عينيه العميقي السواد ، بينما هو يتكلم ، فتستشف
اطيافاً من الألم والحزن والاسترحام تصارع ككبرياء خرساء
مصدومة ... قالت له :

- لقد علمت كل شيء ، يا نصر . ابي وامي لا يرضيان ان نتلاقى
بعد اليوم . وقد أنذرائي بالامر ليلة امس كما انذراك هذا الصباح .
وامسكت محدقة في حياه المظلل بالكآبة العميقة . وكأنما
افاق فيها طرف من ذلك الحبث الغريزي البريء الذي لا تخلو

منه امرأة ولو تلقاء من تحب ، فقالت له مستلذة تعذيبه :

— وأي بأس اذا لم نجتمع ؟ وعلام يجب ان نجتمع ؟

فراأت حياه يمتقع وعضلات وجهه تختلج كمن يهم بأن يتفجر باكياً . ورأته يخفض عينين جازعتين الى موطيء نعلها كمن يهم بان ينهار جائئاً عند قدميها .

فارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة راضية محبورة ... انه يحبها ، يحبها ، برغم انه قال لها بعد هنيهة من صمت صاحب عنيف : — كما تشائين !

اوشكت ان تنفجر في وجهه بقهقهة لهذا الجواب . على انها — وعيناها النجلاوان تبرقان — فاجأته بصوت طفولي فيه نبرة غريبة من الجراءة والجد الرجولي : — أتريدني يا نصر ؟ قل !

فاضطرب حاجباه . واتسعت عيناه دهشة لهذه المباغة . وخشي ان تضيع الفرصة وهو لا يزال يغص بريقه . فاسرع الى انتزاع هذا الجواب الذي لاصق حلقة : — وهل تشكين ؟

— وهل تكون لي وحدي فلا تتزوج علي اخرى ، ولو امكنتك الايام ؟

— اكون لك وحدك ، وما كنت في حاجة الى السؤال .

— اذن ، فانت لي وانا لك ! عهد من الله لا ينقضه بشر .

ونفذ من عينيها الى عينية ضوء متقد نقي .

— وابوك وامك ؟

— لن يرباني الا زوجة لك او جثة هامدة .

فتفجرت الغبطة في هذا الرمل المحرق الذي اشتعل عليه صدر نصر . واعجبته لهجة الصدق والعزم في هذا العهد العظيم الذي قطعه الفتاة الصغيرة على نفسها ، فسري عنه بعض الجهد وانبسطت اساريه شيئاً ، وهم بالكلام . غير انها عارضته كمن يستثيره :
 - لا عليك من ابي وامي . ولكني سمعت ان هذا الجلف الصلف فانكاً ربما ارادني .

- فليتجراً ... وارتم على محياه ظل سحابة عابرة .

- وما تصنع ؟

- لو كان لنشأتي هذه لسان لاجابتك كيف ... تفلق قلبه . سعاد ، كنت استطيع الساعة ان اختطفك فأطير بك بين الارض والسماء . على ان ما يقوله الناس عنك ويعيرون به عمي يعنيني جداً . لذلك انتظر . وانا اعلم ان اكره ما يكره مني ابواك فقري . فلاسعين اذن ، ولابدلن لهما المهر الذي يرضيهما .

ومازجت صوت نصر رقة بعد جفاء ، واستأنف يقول : ولعل هذا الحظ الذي يعبس لي تشرق اساريه وينطلق بابتسام . ولعل هذه الطبيعة التي لا تكتسي الا لباساً رقيقاً من الحضرة تنسج لنفسها هذا العام كساء ضافياً من الاعشاب على نول الربيع . ولعل هذه السماء فوقنا تنهر سخية فتدر ثدي الارض ، فتروى غناتي وتشبع وتتكاثر .

ثم صمت نصر كأنه استغرق في تأمل هذا الموسم الحصب الذي لونه كلمانه باهيج الالوان وازهاها . وكأنه حقاً شهد هذا الموسم مقبلاً من بعيد ، لا شك فيه ، فراح يستدعيه ويستحثه على الدنو بكل ما أوتي من قوة وشعور ، مبتهلاً الى الارض والسماء والله .

ثم أفاق من استغراقه فلم يجد ما يقوله للفتاة الصغيرة القصيرة
الشاحضة اليه في حب واعجاب ، سوى هذه الكلمات : والآن
يجب ان انصرف مسرعاً . ويجب ان نصبر فلا نتلاقى إلا يوم
نستطيع ان نكون زوجين برغم الكارهين .

وأدار ظهره بهم بانطلاق . لكن بدا كأنه يقتلع نفسه من
موضعه وقد ستر فيه ... قالت له سعاد بصوت أغنى دغدغ أذنيه
دغدغة عذبة مطربة :

— ألا تتمهل لتورد غنائي الماء ؟

فصفق فوراً بكفيه ونادى القطيع نداه المألوف . فتلفتت الشياه
من كل صوب بعيونها المستديرة المثالقة صفاءً لأنها كانت تعرف
صوته . وهرعت اليه تتراقص آذانها وتتواهب الياتها في الهواء وراءها ،
فساقها الى المورد تتبعه سعاد وخطواتها على الرمل الطري . موسيقى
صامتة ناعمة . وكان المورد غديراً تبقى من مطر الشتاء في قرارة
رملية ، وقد رسبت اكداره فصفا ماؤه ولا صفاء مرآة من بلور .
شرب القطيع ، ونصر وسعاد مائلان على حافة الغدير ينظران
الى ما ارتسم فيه من عيون الغيمات كأنها خرز كبير من اللؤلؤ .
وجال نظره في الماء فشفت له عن عينيها ووجهها الحبيب . وجال
نظرها فلاقى وجهه وعينه . ونفخت ربح خفيفة في صفحة الغدير
فهاج الماء وارتعش فيه ظلا الحبيبين وتمايلا متدانيين . وكأن الرعشة
سرت الى نصر وسعاد فارتبكا لهذا الاضطراب الذي مس كيانهما ،
وحارا فيما يفعلان ، فانفجرا ضاحكين .

ثم دار نصر فانطلق كالهارب من شيء ، تحمل الريح وراءه
عباءته وشملتة . ووقفت سعاد تتبعه عينيها واسعتين كعيني طيبة

تهم . وتأملته في رشاقة حركاته كما تسبع ألحان ربابته على النسيم ،
 فعجبت ان لا تكون فطنت لذلك قبل اليوم . حتى اذا توارى
 عن بصرها عادت نحدّق في الماء ... فلما ابصرت وجهها أبت إلا
 ان ترى الى جانبه محيّا نصر وابتسمت له إيناساً ومداعبة . لكن
 شاة من شياها فجأة عاثت في الماء حيث تطالع سعاد وجهها
 وتتخيل وجه نصر ، فوحل الماء ، وهشت سعاد على الشاة التي
 فرّت واثبة .

ولم يمنعها ما زخر به صدرها من أمل حي ان تشعر بثقل
 يقعد على قلبها ... فتهدت .

الفصل الثامى

كان ذلك فى اواسط الربيع . والايام يطرد بعضها بعضاً فيشرف الربيع على نهاية عمره ويتحول ما بقى من اعشاب هشة يندثر فى التراب . ونصر وسعاد لا يتلاقيان إلا على بعد او فى هنيهة خاطفة كلما تلاقت بهما الطرق . لكن سعاداً كانت لا تفتأ تزور الغدير لتطالع فيه وجهها وتستشفه عن وجه نصر . كذلك كان نصر لا ينفك يجتلس الزيارات الى هذا الغدير . على أن سعاداً ونصراً لم يكن ليروعهما شيء كهذا النقصان الذى يشهده فى ماء الغدير على التوالي . فالارض يشتد ظمأها مع تلاشي الربيع وإقبال الصيف فتبل احشاءها بما تمتص ثم تمتص من حوض الغدير .

حقاً ان الطبيعة لقاسية ! هكذا فكر نصر وفكرت سعاد . انها يوم تجفف هذا الغدير ستمحو عنها لوحة ذكرى هي اعذب الذكريات وامراها على القلب . غير ان الطبيعة أم رؤوم ايضاً . فليسوف تملأ حوض الغدير مرة اخرى اذا ولى الصيف وأقبل الشتاء ، ثم عاد الربيع . ولسوف ينحدر المطر غزيراً جداً هذا العام فتختزنه الارض فى اعماقها حتى تطفح ، وحتى لا يبقى حوض على سطح الارض إلا دفق ، وحتى لا تبقى من هذا البسيط الفسيح كله تربة بمقدار رقعة الكف إلا اكنست خضرة . فرعت غنيات

نصر وشربت وسمنت وتكاثرت . فأصبح نصر غير هذا الفتى الفقير الذي تزدرية أم سعاد وأبو سعاد ، وبات قادراً على أداء المهر الذي يرضي ويفري .

لكن البس هذا كله أمانى ؟ وشد ما تكذب الأمانى ! وإذا كانت الطبيعة أمّاً رؤوماً فإنها لا تكافى أبناءها دائماً بما يعتقدون فيها من خير أو بما يتملقونها به من صلاة وابتهاال . ها هو الصيف يقبل بكرّته النارية : شمس الملهبة . وكأن هذه الشمس في منازل بني عذرة أشد احراقاً منها في مطارح الصحراء الأخرى . ان الدنيا لنبدو عند الظهيرة وكأنها مسقوفة بصفيحة كبيرة من النحاس الأحمر المحمي . وان الأرض الرملية لتظهر كأنها فرشت بالجر الذي دُقّ دقاً ونثر نثراً . ولقد هزلت الماشية هزالاً أصبحت معه ضلوعها بارزة توى على بعد وتعد عدّاً على الأصابع . أما ضروعها فقد تكمشت وكأنها جلود أبيضت ودعكت دعكاً .

فكيف لهذا الاحمال ان ينقلب الى خير مدار ؟

ولو لم تكن لنصر ربابته لقتله حزنه ويأسه . ولو لم تكن سعاد تسمع ، ولو على بعد ، الحان ربابته اذا خيم الليل وبود الجوّ ، لما انت هي الأخرى يأساً وحزناً .

كان نصر اذا عاد الى خيمته عشاء ، فقعده على بابها ، يعلم علم اليقين بالهام من قلبه ان سعاداً في خيمة والدها تنتظر ألقانها . فيذبح اوتار الربابة ذبحاً ليخرج منها هذه الألحان السائجة الرتيبة التي تنطق عن الفطرة الكئيبة المستوحشة . وكان نصر يدرك ان امامه الشتاء بلباليه الطوال وجوعها وبردها وبرقها ورعدها . فكان سلكاً يغرق سأمه في ألحان هذه الربابة ، ولا يسعد الا

حين يتذكر ان سعاداً تنصت اليه وانه يفرّق سأمها هي الاخرى
في هذه الاغان التي تحسّج في قفص الظلمة وحضن الصحراء .

ولكن الطبيعة لم تحبّ امانى نصر في الشتاء برغم فسونها في
ممعان الصيف . ذلك ان الشتاء حقاً اقبل في هذا العام سمحاً
فيثاضاً بمقدار ما كان الصيف كزاً قانظاً . وكان السماء لم تتدلّ
منها سحب وغيوم ، بل تدلت منها قرب حافلة ثقيلة راحت نصب
من فوهاتنا وثقوبها الواسعة صبّاً غزيراً لا ينضب . وتطاوالت
السنة البروق ملعلعة ، فكان يخيل لنصر انها ستمسح خيمته من
الوجود . ولم يكن يؤذيه شيء كما تؤذيه هذه الرعود وهذه الرياح
التي تصرع ألحان ربابته صرعاً فلا تصل الى سمع سعاد . وكان يفرح
ان يجيء الليل صحواً على شدة ما يبرد الجو ، فيقعد على باب
خيمته يذبح اوتار ربابته . لكن الحق انه كان راضياً في اقصى
نفسه على كل حال . كان يبصر من وراء هذا الشتاء مراعي خصبة
وغدراناً دافقة وقطيعاً سميناً . وكان يرى من وراء ذلك تحقيق
امانيه في الظفر بسعاد .

واخذت ايام الشتاء تنصرم . وبدأت تبشير الربيع تطلّ في
كل مطرح عين . فالسحب انقشعت عن الافق وأشرق أديم السماء
ورقّ النسيم ودبّ الدفء في عروق الارض وبدأت هنا وهناك
رقع من البساط الاخضر .

فلم يبطيء نصر في الخروج بغنياته الى المرعى . وقصد ،
اول ما قصد ، الغدير الذي عكست بالامس مرآة مائه الصافي
وجهه ووجه سعاد . فوجد الغدير يغصّ ويطفح ويموج . الا ان
مائه ما انفك بعيداً عن الصفاء . فحسب ذلك رمزاً لكدر يلقاه .

وفيا هو قافل قبل المساء ، لم يدهشه إلا ناقة وبعير ، في شرح
القوة والفتوة ، أقبلأ وكأث الأرض انشقت عنها ، فانضما
الى قطيعه . فلم يعلم انها شاردان وأيقن ان صاحبها لا بد ساع في
اثرهما . فلم ينهر نصر الناقة ولا البعير ، واعجبه كيف يتبادلان
الشم ويحكّان عنقاً بعنق . ولبت يتابع السير نحو الحي كما لو ف
عادته ، وهو يقدر ان صاحب الناقة والبعير ، ان لم يدركه
الساعة ، ادركه بعد قليل ، فاسترجع ماله . ولكن نصراً بلغ
الحي ولم يلحق به احد . وحجاب الليل قد تكاثف ، واهل الحي
قد تعودوا نصراً وغنياته الهزيلة . فلم يقف احد لينظر اليه فيرى
ما يسوق من ناقة وبعير . او لعل من رآه حسب الناقة
والبعير ملك وجيه في الحي عهد بهما الى هذا الفتى الفقير للرعاية .
وقضى نصر ليلة غلب فيها عليه الأرق وشغل البال . ولم
يسرع على عادته تلك العشيبة الى الربابة ، بل ازدرد ما تيسر له
من تمرات قليلة ، ثم استلقى على ظهره في أرض الحيمة . ولم يفتن
احد الى ان الحي في تلك العشيبة يعوزه شيء . بلى ، فطنت فتاة
في خيمة قريبة تعودت ان تنام على ألحان ربابة نائحة رتيبة ،
وهي موقنة ان هذه الألحان انما تتجه اليها دون سواها من سائر
الناس وتبثها لواعج قلب ملئ .

استلقى نصر على ظهره في أرض خيمته يفكر في الغدير الذي
توقع ان يراه صافياً فوجده كدراً . وانتقل الى التفكير في
الناقة والبعير كيف طلعا عليه فجأة فانضما الى قطيعه . وإنه
ليعلم ان الابل تشرد ، وقد يبسم الحظ لمخلوق فتأنس اليه هذه
الابل الشاردة ، ثم لا يهتدي اليها اصحابها فيأسون منها ، فتبقى

ملكاً لصاحبها الجديد . ان هذا ، ان صح ، كان معناه ان كدر الغدير رمز لفأل ، لا لشؤم ، كما حدثته نفسه . ولكنه يعلم كذلك ان اصحاب الابل قد يهتدون اليها ، وقد لا يكتفون باسترجاعها فيتهمون من وجدوها عنده بالسرقة والسطو . ومن وراء هذا كله عواقب غير محودة لرجل مثله قليل النصير .

الا ان الصباح طلع على نصر ، فخرج غادياً بقطيعه . ومرت النهار فلم يأت انسان في طلب الناقة والبعير . فأخذت الطمانينة فتسرّب من هذه الناحية الى نفسه ، وطفق يضحك من سذاجته لتشاؤمه حين رأى الغدير غير صاف . فالغدير سيصفو ، لا شك . واكبر الظن ان هذه الناقة والبعير قد اصبحا ملكه بصدقة سعيدة او بحظٍ موفق .

ولكن اين هي سعاد ؟ انها لم تخرج بقطيعها وهو ينتظرها احراً انتظار لسمع منها كلمة ويختطف منها لمحة ولو على بعد . ولم يفتن نصر الى ان سعاداً لن تخرج بالقطيع هذا العام . فقد اكتمل نضجها وباتت تنتظر الزوج . وقدّر نصر انه هو الذي بدأ يخرج بقطيعه في أوان باكر ، فلن تمضي ايام على عدد اصابع اليد حتى تخرج هي ايضاً بقطيعها فيراها .

على انه فوجيء يوماً برؤية عمه يدلف وراء القطيع الى المريع . وفوجيء يوماً آخر برؤية امرأة عمه تتولى رعاية القطيع وتزجره بصوتها الاجش الكريه ، فلم يعوزه الفهم ان سعاداً محجوبة هذا العام في خيمة والديها . فبات وليس له وسيلة اتصال بها الا الحان ربابته يناجيها بها كل عشاء على باب الخيمة .

وبالطبع ، لم يكن معقولاً ان يبقى أهل الحي لا يلحظون

ان قطيع نصر ازداد فجأة ناقة وبعيراً ، وان هذا البعير وتلك الناقة ليسا ملك احد من الحي . وكان عم نصر اول من لحظ هذا الحادث يوم لقي نصرأ في المرعى . فعاد الى زوجته يقول لها يزهر الرجل الذي استطاع ان يسجل تفوقاً على المرأة في دقة اللحظ :

- اليوم رأيت ابن اخي نصرأ يسوق في قطيعه ناقة وبعيراً ما ادري كيف حصل عليها .

قالت له وهي تصطنع قلة اكتراث :

- ثق انه لم يحصل عليها في غزو . لقد سرقها .

وكانت العجوز - كاندول المستعمرة اليوم - ترى فرقاً بين

الغزو والسرقة .

فصمت الشيخ . ولم يعجب عجوزه ان يصمت هذا الصمت

السريع ، فاضافت قائلة :

- لعلك اغتظت ان تسمع مني هذا الكلام في ابن اخيك .

وضحكت ، متهمكة ، ضحكة كأنها الشوك « ينقص » وينطحن

تحت اضراس جبل قارح . فلما رآته ما زال مصراً على صمته ،

دون ان تشفي فضولها ، بدلت لهجتها فقالت له :

- لعل احداً عهد بهما اليه للرعاية .

فأجابها باقتضاب :

- كلا ! هما له .

قالت مهتمة :

- هل تساوي هذه الناقة والبعير شيئاً ؟

أجابها : نعم . ان الناقة شابة . والبعير صغير السن . والعشب

هذا العام موفور ، والماء غزير . فليخرجن ابن اخي من فقره
 فيصبح صاحب غنم وجمال حين يسمن قطيعه ويتكاثر .
 فلم تدر المرأة هل يقول زوجها ما يقول مغتبطاً ام مستاءً .
 ولكنها أحست بنار الحسد نشب في صدرها فتأكل قلبها ،
 وعادت تضحك متبكمه وتقول :

— وعندئذ تقبل به زوجاً لسعاد ... ان الدم لا يتحول
 ماء . صدق المثل . والله لا رأى هذا الصعلوك فلامه ظفر من
 رجل سعاد . أفهمت ؟

وكانت سعاد ساعئذ ترتقب ألحان نصر على عادتها كل عشية .
 فسمعت هذا الذي يدور بين والديها من حوار . وفرحت ان
 يكون نصر وفق هذا التوفيق الى ناقة وبعير . وحقدت على امها
 ان تهم نصراً بالسرقة وتزدرية هذا الازدراء ، وتعاند هذا العناد
 كله في رفضه صهراً لها . أجل ، حقدت عليها الحقد العجيب الذي
 ينتاب البنات على إلام في مثل تلك الحال .

لكن الحوار بين الزوجين لم ينقطع عند هذا الحد . فقد ابت
 المرأة الا ان تعرف كيف حصل نصر على الناقة والبعير . فسكنت
 هنيهة بعد ان استشاطت ، ثم عادت تقول لزوجها :

— ألم تسأله أنتى له هذه الناقة والبعير ؟

— كلا !

— انك مغفل . غداً سأخرج انا بالقطيع فأسأله .

ولو ان نصراً كان مطلعاً على هذا الاخذ والرد لفهم ، حين
 لقيته امرأة عمه في المرعى ، لم وقفت تظلل عينيها بكفها من
 الشمس وتصوب الى الناقة والبعير نظراً نهماً ، ثم لم شخصت اليه

كمن يريد ان يخاطبه ، لولا انه أدار لها ظهره مشمئزاً حانقاً
 مناذمي العينين ، ساعة وقع عليها بصره ولم يقع على سعاد .
 وبقي امر الناقة والبعير ، وكيف حصل عليهما نصر ، سرّاً من
 الاسرار يشغل بال اهل الحي ، لكن لا بقدر ما يشغل بال ام
 سعاد . وأحب نصر ان يلغي هذا الموضوع ، فعمد الى حكاية اشاعها
 في الحي ، قال : ان انساناً غريباً استخلصه فاستودعه هذه الناقة
 والبعير ، على ان يستردهما متى عاد .

فتنفست ام سعاد تنفس ارتياح . وقالت لزوجها شامته :
 - لقد علمت ان الناقة والبعير يستحيل ان يكونا ملك هذا
 الصعلوك ابن اخيك .

وانقطع الحديث عن الناقة والبعير . واصبح جوت الحي وليس
 فيه سر من الاسرار . على ان شيئاً غريباً لم يلبث ان اصبح
 موضوع عجب الجميع . فهذه غنات نصر ترعى وترد حيث ترعى
 غنات الناس وترد . وهذه ناقتة وبعيره يأكلان العشب ويشربان
 الماء الذي تأكله وتشربه نياق الناس وبعرانهم . لكن ما شأن
 غنانه تسمن وتطول اصوافها وتدرّ البانها كما لا تفعل غنات الناس .
 وما شأن ناقتة وبعيره يكتزان الشحم واللحم على غير المعهود من
 سائر النياق والبعران .

وابتهج نصر ، اول الامر ، بهذه البوادر من خير . الا انه
 كان في ساعات يقلق ويخاف . فقد سمع ان الفقير اذا همّ بالسعادة ،
 او همت به السعادة ، حل به البلاء . وما كان يخشى شيئاً من
 صولة ذئب او سطوة غاز ، كما يخشى هذه العين الشريرة التي نحدجه
 بها امرأة عمه . على انه كان يراجع ذاته فيذكر كيف تشام يوم

وجد الغدير كدواً ثم لم يسفر ذلك عن اي مكروه اصابه .
فراح ، اذا زار الغدير وطالع وجهه في صفائه واستشف وجهه
سعاداً ، واذا تأمل قطيعه كيف يسمن ويسمن ، ثم عاد الى خيمته
مساءً يناجي سعاداً بألحان ربابته - راح ينسى كل شرٍ وكل
امكان للشر .

غير ان عشية من العشايا اقبلت تحمل الى هذا الحي الساكن
من احياء بني عذرة قادماً غريباً يمتطي فرساً ويتقلد سيفاً وقوساً
ونشاباً ، فاهتز الحي لمقدمه اهتزازاً . لقد ظنوه رسولاً او فده
ابن ام الحكم من المدينة لجباية الضرائب او لانذارهم بوجوب
دفعها في وقت قريب . وابن ام الحكم يومئذ والي الخليفة
معاوية تمتد ولايته الى البادية . فاستقبلوا القادم الغريب بوجوه
واجمة تكتم وراءها اوتيابا غريزياً ، وقلقاً طبيعياً ، يساوران ابناء
الشعب تلقاء ممثلي السلطة ولاسيما الجباة الغلاظ .

لكن الواقع ان هذا القادم الغريب انما اقبل يسعى في طلب
ناقة وبعير له شردا منذ ايام وايام . فسرعان ما انقشع الوجوم
عن وجوه اهل الحي . غير انهم حاروا فيما يقولون . هل يندثونه
ان الناقة والبعير عند نصر ؟ ونصر قد انفق جهداً في رعاية
البيهمنين ، فلا يجوز ان يضيع حقه فيها . ولكن امرأة عم نصر
لم تتردد فيما تقول . بل ما كادت تعلم السبب الذي من اجله
وقد هذا الغريب حتى صاحت :

- الآن اتضحت الحقيقة . انما كذب نصر . زعم ان انساناً
استودعه ناقة وبعيراً ، وهو قد وجد الناقة والبعير شاردين فضعها
الى قطيعه .

ثم التفتت الى الغريب فقالت له بحيث تستوثق من انه يسمعها :
- يا رجل ! ان نافتك وجملك عند صعلوك هذا الحي ز...

فانتهرها زوجها انتهارة لم تكن منتظرة وتوارأت غضباً
في وجهها عيناه العمشاوان . وقاطعها المجتمعون بدمدمة مغيظة
خنقت صوتها في حلقها . ولبث الغريب مدهوشاً لا يعلم ما يقول
حتى علا صوت رزين ، صوت الشيخ سالم من اهل الحي بوجه
اليه الخطاب :

- ثق ، يا رجل ، ان الناقة والبعير ان كانا لك فهما في مأمن عند
نصر . وقد سمعتهما نسميناً . ونصر على فقره فتى رفيع النفس ،
استوعبته لي مالا فأحسن حفظه ، فانا به خير . ولا بد ان يحضر
بعد قليل .

وهنا تشاجع الزوج عم نصر فقال بلهجة مضطربة تثير الضحك :
- انها لا تنفك تحمل على ابن اخي لانها تخشى ان يتزوج بنتنا .
فجدجت ام سعاد زوجها بنظرة مهددة . فأشفق الناس عليه مما
سيصيبه منها اذا خلت به الليلة في الحيمة . وضحكوا ملياً وضحك
القادم الغريب الذي أنس الى الجمع حوله فترجل عن فرسه .
واقبل في هذه الاثناء نصر ، وكان قد سبق اليه من أنباء بما
دار . فسلم على الرجل الغريب ورحب به ، ثم قال له :

- تذهب معي ، يا اخي ، الى خيمتي فوراً . وتنظر في قطيعي
الصغير . فان وجدت بعيرك وناقتك عندي استرجعت حلالك على
خير مما كان . واذا شئت بت الليلة في خيمتي الوضيعة مكرماً
وانطلقت في الصباح .

قال الرجل الغريب : نطقت بالحق . وانا اعرف ناقتي وبعيري

بعلامة . هيتا بنا .

فمشى نصر رجوعاً الى خيمته . وتبعه الرجل الغريب . فما
كاد يطلع على القطيع حتى عرف نافته وبعيره بأثر كي في فخذيها ،
ولكنه شهد فيها سمناً لم يكن من قبل . وصاح الرجل بالناقة
والبعير معنفاً كأن البهيمنتين تفهتان عنه . قال : وبحكما ! لقد
اتعبتاني جداً . ولبكونن عقابي لكما صارماً . ثم وجه الخطاب الى
نصر فقال :

— أتصدق ، يا أخي ، ان هذه الناقة والبعير متعاشقان ؟ وقد
أصرت على فصلها ، فشردا شروداً بعيداً ، حتى لقد سعيت في
طلبها أسابيع مديدة وقطعت المسافات المترامية .

قال نصر وكأنه اكتشف لغزاً كان يحيره : أجل ، لقد لحظت
ان هذه الناقة وهذا البعير يأبيان ان يفتوقا ساعة . واذن ، فهما
متعاشقان كما تقول . وشعنت عينا نصر وسبحتنا في افق بعيد . ثم
تنبه فعاد الى الرجل يقول له :

— أتقبل دعوتي ان تبيت عندي الليلة ؟ اني اقدر ان موضعك
بعيد ، وقد زحمتك الظلام .

فأدار الرجل عينيه ورمى خيمة نصر . ففطن نصر الى حقيقة
احزنته . لكنه قال للرجل : لا تزدر هذه الخيمة البالية . ان القلب
الذي يسكن فيها كريم .

وخف نصر فأخذ من قطيعه شاة سمينة وغمس حد مكينه
في منجرها . فلم يبق للغريب ان يرفض ضيافة هذا الفتى السمع .
ثم انهمك نصر في ايقاد النار . فأضرمها شعلة وردية اللون
نحت هذا الدخان الذي تصاعد منها سحباً تبددت في الهواء .

وتلاعبت السنة الذهب تلقي أخيلة عابثة راقصة على الأرض حولها .
ثم لم تمض إلا دقائق حتى أقبل عم نصر ، وعلى أثره امرأته .
واجتمع نفر من أهل الحي ، ونصر بسلخ الشاة ويقطع لحمها فيشويه
ويقدمه للضيف ولمن حضر من أهل الحي ، وبينهم ... فانك .

ولكن فانكاً لم يحضر للحم يأكله أو لمشاركة في بهجة . فقد
رفض اللحم حين عرضه عليه نصر ، وقد وقف صامناً عليه سيماً
الاستخفاف ولسان حاله يقول : متى أصبح مثل هذا الصعلوك يولم
للناس ؟ ثم هز كتفيه وانصرف لم يستأذن بكلمة . فشيّعه نصر
بعينين لاحت فيهما ظلال قاتمة اللون سرعان ما احتجبت . وارسل
الضيف في أثر فانك نظرة استغراب لا تخلو من استمزاز . ولامر
ما احس الجميع كأن غمامة سوداء ثقيلة انقشعت عن المكان بذهاب
هذا الفتى المتعجرف ... أما سبب ذهابه فربما لم يكن يحمله احد
إلا الضيف . إن فانكاً إنما جاء يولم بعينيه النهيتين على سعاد ،
بينما يولم الناس على لحم الشاة . غير انه خاب فالاً .

وأكل عم نصر حتى تخم . وكانت يد عجوزه لا تتحرك إلا في
طريق واحد بين اللحم المشوي وفيها المغفور ابداً دائماً كأنه
تجوية كهف في هضبة جرداء .

ثم شبع الضيف . وكف عن الأكل من حضر من أهل الحي .
واضطر عم نصر وزوجته إلى الشبع . فاستطاع نصر ان يفرغ لما
يشتهي حقاً ، وهو غير اللحم المشوي ، عنيت ربابته . فقد كان
يتصفح الوجوه حوله فلا يرى الوجه الحبيب إليه . وما كان في
الواقع كبير الأمل بان يراه . كان موقناً ان سعاداً قابضة في
خيمة والديها تنتظر ... تنتظر اختلاج ذرات الظلام بنبض فاعم

من ألعانه . فسرعان ما نهض الى خيمته فأخرج الربابة . وجلس في مقابل النار وقد خفت لهبا ، يثير في هذا الجو المحاط بهالة سحرية ألعانا تم بصراخ ممزق ، ولكنها لا تستطيع إلا النحيب والذئبج . وثقلت على عمه وامرأته التخمة . ولم تساعدهما الالخان إلا على النوم . فانسحبا الى خيمتهما . واخذ بعض اهل الحي يتهايمسون بنصر ويلمحون الى هذه الفتاة التي يعزف لها ألعانه . واستولى على الضيف شجن عميق ، فهمس في اذن رجل من اهل الحي :

— ان لهذا الفتى شأنًا .

فاجابه الرجل همساً :

— اجل ، هو محب لابنة عمه . وعمه يمنعها منه ، وامرأة عمه تراه افقر واحقر من ان يكون لابنتها زوجاً .

— قد استطعت ان استنتج شيئاً من هذا .

وقام الضيف من مجلسه متنحنجاً . فأمسك نصر عن العزف . وقال الضيف لمن حضر :

— شد ما تكبدت في سبيل ناقتي وبعيري الشريدين . لكن اشهدوا انها منذ الساعة حلال لهذا الفتى الكريم ، ولقد تعب من اجلها .

فحميا الجميع سخاءه . ولكن نصراً لم ينبس بينت شفة . وعاد يذبح اوتار ربابته والليل يتقدم واهل الحي ينصرفون واحداً بعد آخر ، والضيف يثقل جفناه ، والنار تهمد وتستحيل الى رماد . حتى اذا لم يبق الا نصر والضيف دخلا الحيمة . فقال الضيف وهو يتهاى الاضطجاع على اللبد المفروش :

— لا نحسبني ، يا اخي ، اردت ان اظهر فضلاً حين تركت لك

الناقة والبعير . لكنني ساعه عرفتكَ عاشقاً مصدوداً ، وعرفت
انكم بني عذرة تهلكون عشقاً ، رأييت من الغال الحسن ان يأتبك
محبان - ولو بهيمتين - قد فازا باجتماع الشمل ، ورأييت من
الشؤم القبيح ان آخذهما وافصل بينهما .

فشكر له نصر صنيعه ، وما كان لبشكره لولا تأويله اللطيف .
ثم قال الضيف بعد سكوت وجيز :

- ستصدقني الجواب ، يا اخي ، اذا سألتك سؤالاً .

- افعل .

- أبينك شيء وهذا الفتى المتعجرف الذي ابى ان يأكل

اللحم من يدك فانصرف بهز كتفيه استخفافاً ؟

بقيت شفتا نصر مطبقتين ... قال الضيف :

- احس كأن في حلقك غصة اعترضتك في الجواب .

قال نصر :

- اجل ، اظنه يريد ان يلوث زهرة قلبي . لكنني وعدت ان

افلق قلبه بنشابة من قوسي ان لم يرتدع .

- قدّرت ذلك ، ونعم ما اتصنع .

وساد في الحيلة صمت كثيف .

ثم قال الضيف وقد احس بالنعاس يقهر جفنيه :

- سأبكر ، يا اخي ، في صباح غد فأعود من حيث اتيت . وأنا

لحرورة ، ان شئت ان تعرف اسمي .

وخطر لنصر ان يسأل ضيفه عن قبيلته ومنازلها . لكنه خشي

ان يظن الضيف انه يطمع في زيارته لمنفعة يرجوها . وغمر النوم

الضيف وغرق فيه شاخراً الى قرار عميق .

غير ان نصراً لبث لا يستطيع اغلاق عينيه . ثم تسلل على رؤوس اصابع قدميه ، فقع امام الحيمة يتأمل بقايا النار كيف تطفأ ، ويتأمل هذا الفضاء الرحب تلفه السكينة ويذرني فيه القمر والنجوم غباراً رقيقاً من ضياء أميل الى لون الرماد .

واذا به يرى ظلاً ترمى امامه من مسافة . فحدّق - واذا بشبح بشري في سواد يدنو منه . خفق قلبه . لقد ارتسمت في لوحة خياله صورة فأنك . لكن يا للمفاجأة ! اقترب الشبح ، فكان هو سعاداً تمس الارض بقدميها مستاً ناعماً رقيقاً كتسلل النوم الى الاجفان .

قال لها والكلمات تلتصق بحلقه :

- سعاد ماذا جاء بك ؟ لو ابصرك احد لكانت فضيحة دونها الموت .

قالت له وانفاسها المتسارعة تراحم كلماتها :

- أتيت اقول لك ، يا نصر ، اننا على العهد . وأبي وأمي

فأمان نوم تحمة . لقد اطعمتها كثيراً يا خبيث !

قال لها بلمهجة من يتوسل اليها ان تمكث :

- عودي ، عودي مسرعة الى موضعك . واطمئني الى ان الحظ

يتسم لنا . لقد اقبل هذا الغريب ، ضيفي الليلة ، يستعيد نافته وبعيره ، لكنه ابقاها لي .

- عرفت ذلك بما كانت يتحدث به ابي وأمي بعد رجوعهما

الليلة .

وأدنت من وجهه عينيها المتقدتين ، وأدنى هو من وجهها

عينيه . فلمعت شرارات ، وتنادت الشفاه تنادياً اخرس ، الا انه

صارخ بليغ . ولكن الحياء منع الشفاء ان نجيب ... او هو حب
بني عذره .

صمت . صمت ودت معه روحان ان تنطلقا في نجوى صافية
متفرقة لا صخب فيها . ولكن كيف باللحم والدم ، وهما
يأبيان الا ان يصحبا في جوع الى اللقاء فيجعل الصمت مرهقاً
ثقيل الوطأة .

وقال نصر بصوت هامس عراه الجفاف :

— سعاد ، هل لم يزل فانتك يتعرض لك ؟

ففاجأها سؤاله مع هذه الانتقال الذهنية السريعة . وخافت ان
تتلكأ في الجواب فقالت له :

— ما الذي دعاك الى ذكر هذا الجلف ؟ لا عليك منه ، يا نصر .

ومضت تكدس في سرها : ترى هل درى نصر بما كان ؟ هل
علم ان فانتكاً انتهز الليلة انشغال اهل الحي ، فاقبل ، فوقف
عند خيمتها يدعوها اليه ويوعدها بالزواج ، ويهددها بانه سيختطفها
في وقت قريب بعد ان يلتحق بحرس الوالي في المدينة فيصبح
فارساً ذا رمح وسيف وحصان ؟ كلا ، لا يمكن ان يكون نصر
قد عرف . فلن نذكر له شيئاً اذاً ، والا كانت العاقبة وخيمة .
قال لها :

— اراك استغرقت في التفكير ، يا سعاد . لقد حضر فانتك الليلة

مع اهل الحي ، ثم سرعان ما انصرف مستخفاً مستهزئاً ، لم يقبل
ان يذوق طعامي . فلأفلقن قلبه يوماً .

قالت له وهي تتمثل في ذهنها ما فعلته الليلة بفانتك :

— لا عليك منه ، يا نصر . اني قادرة ان اهدده بفضح امره

فيجتمع عليه أهل الحيّ ويصبح مضغة الافواه . وقادرة بنفسها
أن افلق قلبه اذا تجاوز حده . لكنني سمعت انه سيلتحق جندياً
بحرس الوالي فيريح الحي من غلظته . والآن ...

- والآن تعودين . قال لها بصوت فيه حنين رجولي . واخذ
كفيها بكفيه وتعانقت نظراتهما عناقاً حنوناً طويلاً .

ثم انطلقت تدرج بقامتها القصيرة كأنها القطاة . لكن بدا
عليها وهي مسرعة كأنها تقنلع قدميها اقتلاعاً من بقعة ارض
تغريها بالبقاء . ووقف نصر يرمقها وهي تبعد . وخيل اليه
ان هذه النجوم فوقه قد انحدرت الى سماء تلالاً فيها بهجة
واملاً بالمستقبل .

ثم اوى الى خيمته فاضطجع . لكنه لبث مستيقظاً يستعيد
هذه القيمات الحلوة التي زعمت بها عيناه ، وهذه الكلمات التي
انسكبت نغماً في اذنيه خلال هنيهة راغدة . وحلم في يقظته
احلاماً اشهى من احلام النوم .

الفصل الثالث

ولى ربيع العام ، لكنه غادر لنصر قطيعاً شعبان ريان . وزحف الصيف بوجهه ونصر لا ينتظر شيئاً كأن يكون شتاء هذا العام كشتاء العام الماضي فاتحة لربيع خصب .

على ان هما عظيماً جدّ لنصر فربض على قلبه كالجلجل ... اذا كان فائك قد غاب عن الحي فالتحق جندياً بحرس الامير ، فان العيون اوشكت في طموحها الى سعاد تصبح كلها عيون فائك . وطفقت أم سعاد تتباهى بجمال وليدتها وتعلن عنه اعلاناً كمن ينادي على بضاعة ، وهي ابدأ حريصة على ان تذكر بالمر الغالي الذي لا قدرة عليه الا لامير او ثري .

فكيف يصنع نصر اذا اقدم هذا الامير او الثري يخاطب سعاداً ، وكيف تفعل سعاد للحفاظ على العهد ؟

وحقاً لم يبطيء هذا الحاطب المنفص ان اقبل ، من احدى الحواضر ، على بادية بني عذرة يمتطي فرساً ويرفل في حلة ثمينه وتصحبه حاشية . كان غنياً جداً ، وكان شاباً حسن الطلعة ، تأدى الى سماعه حديث سعاد من واحد من اولئك الحطاب الذين يتنسمون للاغنياء اخبار الجميلات . فقدم الحي وذبح الذبائح من شياه ونياق حتى لم يبق من أهل الحي صغير او كبير الا وقع له نصيب وتحدث بغنى هذا الامير الغريب وكرمه .

وامتلأت ام سعاد بما أكلت . لكنها كانت اعظم امتلاء بما
 أحست من كبرياء . واغتنمت فرصة فقالت لزوجها :
 - انك زهيت لان هذا الصعلوك ابن اخيك ذبح شاة عجفاء
 ليحمل رجلاً على الحياء فيترك له ناقةً وبغيراً . فاشهد الآن كيف
 تكون الذبائح . والله لازوجن هذا الفتى الغني السخي ، وسواء
 عسي ان ترضى او تكره .

وصفقت ام سعاد بكفيتها ونادت ابنتها من داخل الحية
 لتخرج الى الفسحة امامها فيراها خاطبها .

لكن ما اشد ما كانت دهشة الام حين طلعت البنت مقنعة
 الوجه بالسواد . لقد مست القدر بأطراف اصابعها ثم مسحت على
 وجهها . فبرزت ، حين برزت ، عابسة مقطبة منبوشة الشعر تحمق
 بعينين تقدحان النار ، وتغتصب ضحكات متقطعة بلهاء . كانت لها
 حقاً سحنة المجنونة . ولم يكن على طلعتها اثر لهذا الجمال الذي
 شهرت به . وجعلت تلوح بيديها تلويحاً عصبياً وتشد ثيابها تريد
 تمزيقها وتصرخ بأمها وأبيها : أبيعاً تبيعاني ؟ ثم تلتفت الى الغريب
 الذي جاء خاطباً فتنفجر به مقهقهة وتقول له : خدعوك ! خدعوك !
 سمعت بحسناء جئت تشتريها ، فاذا بهم يعرضون عليك مجنونة !
 فانصرف ، خزاك الله عن مشقة تكبدها .

كانت سعاد تصطنع الجنون اصطناعاً . وقد عجزت عن حيلة
 أخرى تتدارك بها الكارثة التي تنزل بها اذا تزوجت خاطبها
 الغريب . على انها وفقت توفيقاً عجيباً في اصطناع الجنون وتمثيله .
 ولعلها في تلك الهنبة لم تكن تخلو حقاً من شيء من الجنون
 الصحيح .

ثم اخذها وجوم وسهر عميق . واستولت على والديها وخاطبها
وعلى الحاضرين جميعاً بهتة شاملة ملؤها الجزع لما اصاب هذه الفتاة
من بلاء مفاجئ . . وانسحبت سعاد الى داخل الخيمة وهي تسأل
نفسها على صغر سنها : أليس الفتاة ان تدفع عنها شراً الا باصطناع
شر اعظم ؟

وانقض من حضر من اهل الحي في سكة كسكينه
الاشباح . وقام الخاطب الغريب فانصرف انصراف الشاري عن
صفقة غير موفقة . ولحق بسعاد ابوها ثم امها فوجداها منكبة
ارضاً على وجهها ، يضطرب جسمها بما تنشج من نشيج تحاول ان
تكبته لئلا يسمع .

وشاع في الحي ان سعاداً جنت . وانتهى النبأ الى نصر .
فكاد يحن هو الآخر . واسرع الى خيمة عمه مستفسراً . لكن
امراً عمه استقبلته مكشورة نهز سبابتها في عينه حتى لتوشك ان
تفقاها ، وردته على عقبيه . فاقام نصر يتحين الفرص للقاء سعاد .
ثم لم تنقض ايام حتى طفقت ام سعاد تتحدث في الحي ان
ما اصاب ابنتها لم يكن الا عارضاً فزال . وحقاً رجعت سعاد
الى مألوف عاداتها منذ ان استيقنت ان خاطبها الغريب ذهب الى
غير رجعة . على انها لم تنس ان نصرأ سيجزع لما يسمع من
خبر جنونها . فعزمت على ان تلقاه . وليس اصلح من ظلمة الليل
تلقاه فيها خلصة اذا نام والدها وتمكن النوم من الحي كله .
وعلى هذا انسلت مرة اخرى في احدى الليالي شأنها من قبل ،
بعد ان خمدت النيران وامسك نصر عن العزف على ربابته
واطبقت على المكان سكة خرساء .

فلما بلغت خيمة نصر كفاها ان تجر نفساً طويلاً حتى استيقظ ولقيها كالحبـول يفرك عن عينيه اثر النوم .

قالت له في سداجة : انيت لـاـخبرك انني غير مجنونة . لكنني سأجن كلما خطبني سواك .

قال لها : هل حدثتك بحديث الناقة والبعير ، يوم وجدتهما شاردين ، لم شردا ؟

قالت : ما اذكر .

قال : ان صاحبهما لما جاء في طلبهما حدثني انهما متعاشقان ، وقد شردا لما اصرّ على الفصل بينهما .

فأضأت لى ثغرها ابتسامة حلوة ، وقالت :

— تعني ان نشرد .

قال : ان لم يكن بد من الشـرود .

قالت : نحن على العهد ... ودارت لتصرف .

قال : قبل ان تقضي زيدي من انفاسك قليلاً في خيمتي ، وهاتي

يدك ليدي . فتنهّدت واسلمت كفها الطفلة الى كفه لحظة انغمضت

فيها عينيهـا ، وردّت رأسها الى وراء عارضة نقاط الوشم الزمردي

في ذقنها ، مفتوحة الشفتين فتحاً رقيقاً . فلم يملك الفتى ان دنا من

تينك الشفتين بشفتيه المختلجتين ، ولكن دنوّ متروّداً اغراه بالسرقة

شيء عزيز نفيس يخشى لمسه . ولحّته الفتاة خلال اهدائها المسبلة

الطويلة يدنو منها هذا الدنو ، فتراجعت منذرة وفتحت عينيهـا

فتحاً كبيراً عن سؤال دهشة وتعجب . قالت له وكأنها تثن

انيناً ولا تتكلم : أولسنا عذريين ، يا نصر ؟ أجابها وهو مسرّ

العينين بالارض لشدة خجله : نعم . ولكن ... ولصقت بقية الكلمات

بخلقها . فأنفلتت منه وغادرت في ارتباك . ولم تكن أقل منه ارتباكاً وهي تبعد متغلغلة في الظلمة .

... وكان طبيعياً ان لا يصدق احد ام سعاد اذ تقصّ ان ابنتها عوفيت من نوبة جنونها . وكثر اللفظ في الحى بهذه الام التي تعلن عن جمال ابنتها اعلاناً ، وتأبى ان تزوجها الا من امير او غني طمعاً في غلاء المهر ولو ادى ذلك الى جنون الفتاة . وانقسم اهل الحى في شأن الاب . فمن قائل : انه ليس أقل جشعاً من امرأته . ومن قائل : انه مسكين قهرته امرأته على ارادته . ولو كان له الامر لرضي من ابن اخيه بمهر يسير وزوجه الفتاة .

هذا ، وايام الصيف تنقضي سراعاً ، والشتاء يدنو ، وقطيع نصر لا يبدو عليه اثر من هزال لما كنز من شحم ولحم زمن الربيع . وحين اقبل الشتاء لاحت التباشير بانه سيكون خيراً . وجاء الربيع خصباً كـربيع العام الفائت . ولقحت الناقة . ولم تبق شاة عند نصر الا لقحت . فتضاعف قطيعه او اوشك . ولقي نصر عمه يوماً في المرعى . فقال له عمه بعد ان وقف يحجب الشمس عن عينيه العمشاوين بكفيه ويتأمل القطيع السارح :
- يا ابن اخي ، ارى ان الله بارك في قطيعك .

اجابه نصر : أيعجبك هذا ؟

قال عمه : ولم لا يعجبني ؟

قال نصر : ظننتك كامراتك .

وسادت هنيهة صمت ثقيل . ثم استأنف نصر يقول : لو شئت لأصبح هذا القطيع كله لك .

قال عمه وقد انتعش النور الكاوي في عينيه : وكيف ؟
قال نصر : تزوجني سعاداً فأدفعه لك مهراً . أم انت تخاف
امرأتك ؟

قال عمه : انها مثلي يعجبها قطيعك . لكن كيف تصنع اذا
تزوجت سعاداً ولا قطيع لك ؟
اجابه نصر كمن يتهمكم : أنتظر ، يا عم ، حتى تموت انت
وعجوزك فتوث سعاد القطيع . بقي ان تزوجني سعاداً ولا
عليك .

قال عمه وعينهاه مغرورفتان : اترك لك زوجين من غم ، يا ابن
اخي . وثق ان امرأة عمك ما كانت لترضى لولا انني جادلتها
اعنف جدال .

قال نصر بمرارة : ولولا ان الامير او الغني الذي تنتظره
امرأة عمي صهراً لم يأت ، لان سعاداً آثرت ان يسمع عنها
الجنون على ان تكون سلعة للتجارة .

... بعد أيام ، في ليلة ربيعية صافية من ليالي البادية ، قام
عرس في حي بني عذرة - عرس فقير ، بساطه الرمل وزينته نجوم
السماء ، زفت فيه فتاة الى فتى وكلاهما لا يملك الا الشباب
والآمال . لم يكن في العرس غير ذبيحة او ذبيعتين مما تبوع
به بعض الاجواد . ولم تشهد العرس عجوز سعاد لانها كانت
مشغولة بفحص القطيع الذي تسلمته مهراً لفتاتها . راحت تقول :
خدعنا نصر ، فليس قطيعه سمياً بقدر ما كنا نظن .

لكن حسب هذا العرس على فقره انه لم يكن كبعض
الاعراس ماتم قلب سلخ عن محب وضم الى من يمقت . لم يكن

كـبـعض الـاعـراس مـخـنـيـطاً لـلـمـرأة فـي رـمـس يـسـمـى بـيـتاً زـوـجياً .
وـفـارـقـت رـبـابة نـصـر لـيـلـتـنـد الحـانـها الرـتـيـبة النـائـحة ، فـكـانـت تـغـرد
تـغـريـداً . وـالـسـنة النـار الـتي اوقـدـت لـلـمـنـاسـبة السـعيدة بـدـت كـأنـها
تـتـراقـص عـلى تـوجـات الغـبـطة العمـيقة فـي اغـوار هـذه الـالحـان .

امـا سـعـاد فـكـأنـما جـمـع لـها رـبـيع الصـحـراء كـلـه ذـلـك العـام .
ولـم تـنـس تـلك الـلـيـلة ، سـاعـة انـفـردا فـي الحـيـمة فـأسـلـمـت الـيـه
شـفـنـيـها ، ان تـسـألـه ، وـفـي صـوتـها ، هـذه المـرة ، نـبـرة مـن دلال
لا جـد : أولـسـنا عـذـريـين ، يا نـصـر ؟ فـأجـابـها غـير مـرتـبـك وعـيـناـه مـلـء
عـيـنـيـها : اجـل ، وـلـكـن ألسـنا مـن بـني الطـبـيعة قـبـل ان نـكـون مـن
بـني عـذرة ؟

الفصل الرابع

العجيب ان امرأة عم نصر لم تكن كاذبة حين قالت ان قطيع نصر ليس سميناً بقدر ما كانت تظن . فقد رفعت البركة دفعة عن هذا القطيع منذ ان تسلمته . اصاب الهزال غنماته واصاب الناقة والبعير . وكان اليد التي كانت هذه المرأة تجس بها القطيع يد سامة واصابها أفاع وحيات . ثم ما لبث الموت ان لحق ببعض الغنمات وفاز منها الذئب بنصيب . وما لبث البعير وناقته ان جريا ، وبعد ذلك شردا فضاء .

فقالت العجوز لزوجها : لعن الله الساعة ... اقسم ان هذا الصعلوك ابن اخيك لساحر على اتصال بالجن ، والا فكيف طرأ على سعاد طارىء الجنون يوم جاء بخطبها ذلك الفتى السري الغني ، وكيف يقع اليوم لهذا القطيع الذي اخذناه مهرأ لفتاتنا ما يقع من عظيم البلاء ؟

ورددت العجوز مثل هذا القول لبنتها سعاد ، تريد ان تزرع الخوف في قلبها من نصر . وسعاد تلاحظ ان زوجها لا يأتي عملاً الا وفق فيهِ . فقد رعى قطعاً لرجال موسرين من اهل النحي بعد ان دفع قطيعه مهرأ لابنة عمه ، فكان القطيع ينمو ويزداد برعاية نصر . وكانت مكافأة نصر لا بأس بها ، رغم ما حاول اصحاب المال ان يأكلوا من ثعبه . وقد صنع نصر قوساً وفق بها في

يومين الى فنص غزال وصرع ذئب . وكان زوج الغنم الذي بقي له من قطيعه بسمن ويزكو . فاذا استمرت الحال على ما هي عليه ، فنصر سيعود صاحب قطيع صغير في زمن قريب .

ووجدت سعاد ان مثل هذا الامر بعيد من ان يكون طبيعياً . فلما سمعت من امها ان نصراً ساحر ، على اتصال بالجن ، لم تصدقها . ولكنها لم تكذبها التكذيب كله . واصبحت تتأمل نصراً ، فاذا هو غير فائق الحسن اذا قيس بالمعروف المألوف من مقاييس الجمال . فهذه اذناه في جانبي رأسه دقيقتان كأنهما اذا جردا ! وضحكت للتشبيه . ولكنها مع ذلك تحبه حب عبادة . والذي تعلمه من نفسها انه لم يكن ، على حبها له من قبل ، يثير فيها ما يثير اليوم من شغف عنيف . لقد حبك لها ، في خفاء وفي صمت ، خيوطاً غير منظورة شدها بها اليه شداً محكماً . فليس بالمستبعد ان يكون ساحراً ، على اتصال بالجن ، كما تقول امها .

فعرزت يوماً على ان تسأله اذا انتهت هموم النهار ففرغ لها وفرغت له ، ليلاً ، في هذه الحبة الوضيعة التي ملئت هناء بهنائها . فـالـت له وقد ضرب سكون الليل روافه على الدنيا :

— يزعمون ، يا نصر ، انك ساحر ، على اتصال بالجن ، فهل صحيح

هذا ؟

فانفرجت شفتاه السمر اوان بابتسامته عن أسنانه البيضاء التي لمعت في العتمة . قال لها :

— ومن هؤلاء الذين يزعمون هذا الزعم ؟

ولم تكن سعاد لتخبئي عنه امراً ، فأجابته على الفور :

— انها امي .

— وهل صدقت العجوز ؟

— يحترني، يا نصر ، كيف تنمو في رعايتك القطعان ، ونضجحل في رعاية غيرك ؟

— تعنين امك مثلاً . تلك امرأة ، يا سعاد ، لا تحب . تلك امرأة تعيش على الحسد والطمع الاعمى . ولا بركة على يد من لا يحب . فسكنت مقتنعة .

فأضاف مستأنفاً الكلام : هو الحب يصنع العجائب ، فليظن ذلك سحراً واتصلاً بالجن . وابتسم ابتسامته العريضة التي تلمع في أثرها اسنانه البيضاء وتنقلص اذناه الجرذيتان . فختمت سعاد على شفثيه بقبلة خاطفة عنيفة ، وفركت بكفيها اذنيه الدقيقتين . ولو ان عجوز سعاد كانت امرأة اخرى لنزلت على حكم الواقع . لكن العجوز — وتلك طبيعتها — أثبتت ان تطمئن الى المصير الذي ظلت تزعمه بحجفاً بابنتها ، وهي في الحقيقة انما تعتبره بحجفاً بذاتها لأنها لم تستوف المهر الذي يليق بجمال ابنتها ، عدا ان هذا المهر قد نفخ فيه ابليس نفخة ملعونة فطار او اوشك ان يطير .

وتربصت ام سعاد على مضض تنتظر اليوم الذي تستطيع فيه ان تفصل سعاداً عن نصر لتزوجها رجلاً تستوفي منه المهر كما يجب ان يستوفى ... حتى لاحت لها ، آخر الامر ، فرصتها المطلوبة .

ذلك ان اهل هذا الحي المنقطع في الصحراء اصبحوا يوماً يتحدثون بامر عظيم ، يرددون ما سمعوه من ان ابن ام الحكم قادم من المدينة غداً للصيد في تلك الجهات . ومعروف من ابن ام

الحكم . هو الوالي على هذه البادية ، نصبه الخليفة في دمشق يومئذ : معاوية بن ابي سفيان . وبالطبع لن يخرج ابن أم الحكم الى الصيد الا بيطانته وخدمه وخيله . ولعل خروجه هذا ليس في سبيل الصيد بقدر ما هو عرض لاهمة الدولة ، وغرس لهبتها في الصدور ، ومناسبة يفرق فيها على سبيل الاحسان والهبة بعض ما يستقطر من دم الرعية وعرق جبينها ، فيتناقل الناس حديث كرمه وكرم الدولة التي يمثلها .

وكان حتماً ان نسمع ام سعاد بهذا الحديث الخطير ، وان تفكر في اغتنام هذه الفرصة النادرة حتى اقصى حد . واذا كان الوالي يطلب السنة تلهج بالثناء عليه وعلى الدولة ، فلسانها في هذا المجال اطول لسان . فلم لا يصيبها حظ من هذه العطايا التي ينوي تفريقها ؟ بل اذا كان الوالي يخص الفقراء بعطفه دون سواهم ، فهي فقيرة جداً تلف قطيعها وهلك .

وعلى هذا عزمتم في نفسها ان تتعرض له فتلقاه . سوف تخرج غداً ببضع غنيمات من قطيعها الاعجف ، وسوف تلبس ثوباً مخرقاً لا يستر منها الا مواضع العورات ، وسوف تمضي الى ابنتها سعاد فتدرف لديها الدموع وتقول لها : اخرجي معي نلق الوالي ونبك بين يديه ، فأزعم اني ارملة وانك يتيمة ، ليس لنا ما يمك ارماقنا . انه عندئذ لن يبطيء عن الاحسان اليها .

وانطلقت ام سعاد الى ابنتها ففاوضتها في الامر ، وسكبت دموعاً غزيرة ، وأثارت شفقتها على ابنها ، فقالت سعاد :
- رويدك حتى اسأل نصراً رايه .

ولم تنطل الحيلة على خصر حين كلمته سعاد . أدرك فوراً ما

تومي اليه العجوز من غاية خبيثة . علم انها لما تريد ان يقع نظر
الوالي على سعاد وجمالها الفاتن ، فلعل شيئاً بعد ذلك يحدث .
فقال نصر لسعاد :

-- هذا امر لست استطيع ان آذن لك به . انت عجوزك
تنوي استدراجك والتغريب بك . ثم ما شأننا نحن والوالي ؟ لئن
اشتيت امك ان تظفر ببعض الفئات بما يتساقط من مائدته ،
فليست بنا حاجة .

فأسرعت سعاد الى امها تبلغها الرفض . وكانت العجوز قد
اقنعت الاب الضعيف بصواب ما عزمت عليه ، وأطمعته في عطاء
الوالي . فاجتمع الوالد والام على البنت الرقيقة يسترحمانها ان لا
ترد لها هذا الطلب .

قالت سعاد : ولكن نصراً لا يرضى .

أجابتها العجوز بمرارة : كأن نصراً هو الذي حملك في احشائه
الاشهر التسعة ، وكأنه هو الذي وضعك الى الدنيا صارخاً متوجعاً ،
ثم كأنه هو الذي ارضعك من ثدييه وسهر عليك الليالي .

وقال الاب مسايراً امرأته : وكانت نصراً هذا هو الذي
افرغك من صلبه . يا ابنتي ، ساعدينا بما لا يضيرك ولا يكلفك شيئاً .
فاغرورقت عينا سعاد وقالت لوالدها :

-- ان نصراً لا يريد . وقد قل لي ان امك تنوي استدراجك
والتغريب بك .

فاضطرب الوالد وامتنع لونه وحجج امرأته بنظرة مستريبة
من عينيه العماوين ، وقد فهم حقيقة ما تعني كلمة نصر ، لكن
العجوز اجابت فوراً دونما ارتباك :

— طبعاً ! طبعاً ! اريد استدراجك . ان الوالي ساعة يقع عليك نظره في هذا الثوب الحسن البالي وهذا الجلد المدبوغ بالشمس ، سيجن جنوناً وينسى جوارى المدينة ومغنياتها ، وبنات المقاصير والحمامات في دمشق . يا ابنتي ، قولي لنصر ان للحمق والسخف حداً .

ولأول مرة أذنت العجوز لنفسها ان تستهين بجمال ابنتها . وكان الشيخ اقتنع بما قالت عجوزه فهزّ رأسه علامة الموافقة . فعادت سعاد الى نصر وقلبها في قبضة قوية نشده وتعصره . قالت له :

— يا نصر ، ان لأبي وامي عليّ حقاً . وهما في حالة يرثى لها . ولو كنا نحن في يسر لوسّعنا عليهما من مالنا . وانا لا ارى بأساً في ان اخدمهما بما لا يضيرني ولا يضيرك . وهب ان امي كانت لها النبة السيئة التي نحسها ، وتوجس منها شراً ، فما احسب ان الوالي سيهتم لي ، ولديه بنات المقاصير والحمامات في دمشق وجوارى المدينة ومغنياتها .

قال نصر :

— اذن فأنت وشأنك ، يا سعاد . قالها باطراف شفّيته دون ان يكون فيها صدى من قلبه .

وبزغت الخيوط الاولى من صباح اليوم التالي ، فاذا الطريق التي تمتد من الحي متجهة نحو الفضاء الطلق تحمل امرأتين : عجوزاً قردة وبناتها الوردية ، تسيران في ثياب رثة وتسوقان امامهما بضع غنات هزيلات .

وفي الآن نفسه ، كانت في موضع من هذا الفضاء الطلق ،

حول الغدير الذي طالما تلاقى عنده نصر وسعاد ، خيام كبيرة تنصب وخيول كثيرة تربط - تلك خيام الوالي ابن ام الحكم وخيول حاشيته وخدمه .

وبقيت تسير المراتن حتى ارتفعت الشمس في القبة في ذلك اليوم من أواخر الربيع وأوائل الصيف . ثم اتيح لها ان تشرفا على الموضع الذي اقيم فيه مخيم الوالي . فخفق قلباهما ، وراعهما على بعد ذلك القماش المقصب الذي صنعت منه الخيام يتألق في شعاع النهار ويمتزج تألقه بتألق الغدير ولمعان أسنة الرماح التي ركزت في الرمل سياجاً رمزياً للمخيم . وانجذبت العجوز نحو الموضع انجذاباً . إلا انها هابت ان تدنو منه فوراً . وكانت هما الاول ان تلمح شخص الوالي لحة ولو على بعد . واشتهت لو ان واحداً من أولئك الخدم الداهيين الآيبين يلتفت اليها ويدنو منها فتسأله عن الوالي : أي هو ؟ وابن هو ؟

فاما سعاد فما لبثت ان رجعت بها الذكرى الى يوم كانت تلقى نصراً في هذا المقام ، واستغرقت استغراقاً حلوّاً عذيباً .

وظل الخدم يذهبون ويؤوبون . منهمكين في اعمالهم . وام سعاد تلاحظ وترقب الفرص ، ولا تقفأ تهش على غنائها الهزيلات . وسعاد في استغراقها وسهوها تبدي مللاً وتتحدث بالعودة الى الحى ، فتنهرها امها وتصيح بها :

- لم يشن لك ان تشناقى الى نصر ! والشمس تزدد ارتفاعاً

في القبة حتى دنا الظهر .

فأث ام سعاد ان لا معنى لهذا الانتظار الطويل الذي

خشيت ان يودي بصبر بنتها . وعزمت ان تمضي الى الخدم

فتسأل عن الوالي مهما تكن العاقبة .

لكن في المنية التي اندفعت فيها نحو الحيام ، سمعت وقع حوافر . قالت لها بنتها : اني ارى سحابة من غبار يشور وينعقد في وهج الشمس ويقرب منا .

وبعد قليل كانت ثلة من الحيل ، عليها الفرسان ، تحيط بالأم وبنتها . ونبحت الكلاب ساعة رأت هاتين الاعرابيتين في الثياب الرثة . ونفرت الغنم الهزيلات . فارتاعت سماد - ارتاعت لمشهد هؤلاء الفرسان على الحيل المطهمة ، ومعهم السيوف والقسي والشاب . ولأمر ما طافت بذهنها صورة فانك ، فتخيلته بينهم ودبت فيها رعدة خفيفة . على ان امها ملكت هدوءها ، فتقدمت من الفارس الذي يسير في طليعة الحيل وقد قعد بطنه قدّامه على سرج الجواد ، واحتقن وجهه الفرزدق من شدة الجهد ، وغطت صدره لحية عظيمة ذرّ عليها رماد الشيب ، فجحته بالولاية . ولم تخطيء فراستها . دلّتها غريزة العبد التي فيها على من هو السيد . ومسحت بيدها على عنق جواده الذي يتصبب عرقاً ويضطرب منخراه بما يدفع ويجرّ من انفاس .

فنظر الوالي الى فارس من حاشيته ، كان الى يمينه ، وقال له : — ما رأيت كالיום قلة حظ . لم اوفق الى صيد اصطاده . ثم

ها انا اقع على اعرابية عجوز .

واذا بالفارس يحول الى الاعرابية وجهاً مقمطاً بشملة ، تعقف فيه شاربان متعجرفان ، وبرقت عينان نهمتان . انه فانك اياه ! فقابلته العجوز بابتسامة متزلفة على شفثيها الجافتين ، وغمزته غمزة ابليسية من عينيها الحزيتين الغائرتين . فلوى فانك عنقه فهمس

في اذن الوالي همساً غير قصير .

ثم تكلمت ام سعاد ، قالت :

- سيدي الوالي على حق حين ذكر قسلة حظه اليوم ، اعاد

الله حظه موفوراً مشرقاً . اما انا فلم اجد كاليوم سعادة حظ .

لقد لقيت الامير ! ولو كان لي ان استوقف الزمان لاستوقفته

وانا في عتبة العشرين لالتقي به سيدي . لكن الانسان لا يلام

اذا قصر عن المستحيل ، والشجرة القديمة لا تلعن اذا اوشكت

ان تيبس ، بعد ان تنبت شجرة احسن منها رونقاً ونضارة .

قال الوالي : فانك الله ما افصح لسانك واجراً جنانك ! ارنا

شجرتك التي انبتتها والتي تدعين لها الحسن والرونق . وذهبت عينا

الوالي ، في صحبة عيني فانك ، تلتسان هذه الدمية الرشيقه التي

وقفت على بعض البعد مديرة ظهرها .

فصاحت الاعرابية : سعاد !

فانفتلت الدمية في تباطوء وحياء وجلال . وأطل وجه اسمر

رقيق بمقلتين تنفذان الى الاعماق وتقتنصان النفس ، وتتكسر على

اشعتها اشعة كل نظر . واسرعت ام سعاد الى اصطناع القصة في

صوتها وقالت :

- عجوز فاقدة النصير ، ویتيمة مسكينة ، ارملة مقهورة ، ايها

الامير . ليس لنا الا هذه الغنات العجاف وما يهب لنا الكرماء

من فضلهم وفضل الله .

على ان ابن ام الحكم لم يكن يصغي الى ما تثرثر به هذه

لاعرابية . كان يومئذ بيده الى سعاد ان تقترب ، وهو متعجب

الريق في الفم ، ويميل على فانك بجانبه فيقول له همساً او كالمس :

سترى ان صبيدي اليوم كان خيراً من صيدكم جميعاً ! وفاتك بوشك
ان لا يعي ما يسمع ، فهو يحاول ان يصمد بعينه امام نظرات
سعاد القادحة ، ويتمثل يوماً باستطيع ان ينفذ ما هددها به من
خطفها والانطلاق بها فوق جواده ليقضي وطراً ابته عليه . ذلك
وفاتك يتساءل : أيكن ان يكون نصر حقاً مات ، فسعاد اليوم
ارملة ؟

وقد ثقلت رجلا سعاد وهي تدنو من الوالي ، فكأن قدميها
الصغيرتين الرشيقتين اصبحتا عبئاً عليها باهظاً . فهابت بها امها ان
تسرع . فخطت وهي تحس الريبة في هذا الرجل بغريزة الانثى
التي تحس ما يجول في خواطر الرجال ، وان لم يصرخوا تصريحاً .
قال الوالي مخاطب الام :
- أمتزوجة ابنتك ؟

فعلمت العجوز انه لم يكن يصغي اليها حين ذكرت ان
ابنتها ارملة . وانفتحت لها وراء هذا السؤال آفاق ، فأجابت :
- اما وقد سألت ، ايها الامير ، فهي متزوجة . لكن زوجها ،
وهو ابن عمها ، فقير يسير النفع .

فلم تستطع سعاد مواصلة الصبر على هذا الغليان الذي جاش
في صدرها . تجعلها امها ارملة ، اول الامر ، ثم تهين زوجها
وتحتقره . وتجعلها يتيمة ، فتدفن اباهما الشيخ المسكين قبل وفاته .
وتستدرجها الى هذا المكان ، فتولم عليها عيون رجلين نهمين وليمة
دنيئة . فانفجرت سعاد صارخة بكلام لا يفهم ، وولت هاربة
بانجاه الحي .

فأتبعها امها فقهة مرة ، وقالت للوالي الذي ذهل :

— اعذر خجلها وخفتها ، يا سيدي .

قال الوالي : اظنها متعلقة بابن عمها .

قالت العجوز : ولكن تعلق الاطفال الاغبياء . والله لو

قست ابن عمها هذا بشسع نعلك لرجحه . سل عنه هذا الفارس الى جانبك ، فهو من حيننا ، وهو يعرفه حق المعرفة .

قال الوالي : لا عليك ، يا عجوز ، لقد حدثني فانتك ... لكنني

رجل لا يحب الحرام . فلو طلقها بعلمها لتزوجتها .

ونغمز ابن ام الحكم الاعرابية غمزة غامضة . وكان قول الوالي

جديراً بان يقع على فانتك وقوع الصاعقة ، فان زواج ابن ام

الحكم بسعاد يجعلها عليه امنع من عقاب الجو . غير ان تلك

الغمزة الغامضة سافت اليه الطمانينة . فقد فسرها فانتك بان الوالي

غير جاد ، وهل يُعقل ان يكون جاداً ؟

وهنا حرك ابن ام الحكم يده فدفستها في جيبه وخرج

ديناراً من ذهب قذف به الاعرابية . ثم جذب لجام جواده فسار

الى الحيام .

الفصل الخامس

اقبلت سعاد على الحلي مهرولة ، ضيقة الانفاس ، مفسولة الوجه بدموعها . لكنها اجتهدت ان لا يراها احد . وانحازت الى خيمتها حيث قبعت تنتظر عودة نصر اذا امسى المساء . وفكرت في ما عساها تقول له . فعزمت على الافضاء إليه بكل شيء . ان الحب الصحيح شجاع !.. عزمت على ان تستغفره . ثم تطلب اليه ان يغادر الحلي في إشراع لان الامور لن تقف في سيرها عند حد .

على ان امها ما لبثت ان تبعثها على الاثر . ودخلت عليها الحيمة تبش في وجهها بشاشة إبليسية تتصنع براءة ملائكية . قالت لها :

- يا ابنتي ، ان الوالي لم يتعرض لك بشيء قبيح او مهين . ولو تريشت فلم تنفجري هذا الانفجار الجنوني ولم تولي هاربة ، لسمعته يقول لك ما يرضيك . لقد اعجب بجمالك . وشرف لك ان يعجب بك رجل تنصاع له الجواري من يجلبن الى المدينة ، واجمل النساء ممن ينعمن في مقاصير دمشق . ولقد كان باستطاعته ان يستغل فقرنا وضعفنا ويستعمل سلطانه فينال منك في ساعة ما يشتهي على اهون سبيل . ومن ذا الذي يمنعك منه ؟ انصر هذا الرجل الرث ، ام ابوك ، ام انا ؟ لكنه قال دون ان يسأله

سائل : اني اكبره الحرام ، فاذا طلقها بعليها تزوجتها حلالاً من الله . ثم قذف لي بما لو رأيته لدعشت . انظري . وعالجت ام سعاد طرفاً من ثوبها قد عقدته عقداً محكماً . ففكته عن دينار الذهب الذي راح يشع بشعاع اصفر هازيء وقع في النجدي . ثم استطردت تقول :

— انك لو عقلت ، يا ابنتي ، لكان لك ما شئت من هذا المعدن الثمين : للبتت منه السوار في المعصم والعقد في العنق ، ولاكلت في صحاف منه اطيب ما يؤكل ، ولارتديت به الحرير ، وثبت به على السرير الوثير . فكري . ان باب الحظ قد انفتح لك على مصراعيه ولم تقريه . ثم انك لن تخلي بحكم من احكام الناموس . وماذا في ان تطلقني نصراً او يطلقك نصر ؟ وماذا في ان تقترني بسواه ؟ وجمالك هذا لن يدوم . لكن هذه النعمة اذا استقبلتها دائمة ، تستطيعين ان تغمرني بها أبويك ، وتغمرني نصراً اذا شئت . وقد رأيت الوالي ، فهو ما زال في سن الرجولة القوية ، حسن السم ، بهي الوجه .

وكانت سعاد تصغي وكأن امها تحز اعصابها وخزاً بابو حادة . فلم تتمالك ان صاحت بها :

— اخرجي من خيمتي ، ايها الاعمى ، والا خنقتك ... والتهبت عيناها بعزم لا يقف عند حد حتى القتل . فيما اسرع ما انسحبت العجوز وهي تدمدم : ويحي لو سقيت حلبي ذئبة لكانت أبر بي !.. وأخذت تزحف اشباح المساء وسعاد قلقلة ، مثقلة الصدر ، لا تأتي حركة الا ان تمد بنظرها من باب الحيمة لترى هل اطل نصر . فاذا بها نحس اضطراباً وذهاباً وايباباً في الحي على غير المألوف في

سائر الامسية . ثم اذا بفتى يسنده في المشي فتيان عن يمينه وشماله ،
جر قدميه فوق في الساحة يوشك ان ينهار ، واحتشد من حوله
الناس . لم تتبين وجهه ، ولكنها سمعت صوته يثن ويستغيث .
فخشيت ان يكون هو نصراً قد اصابه شر . فخرجت من الحيمة
ودخلت في صفوف المحتشدين . فأبصرت مشهداً عجباً - الفتى وقد
رفع قبضه وقوس ظهره الاعجف وطفق يصيح خلال دموعه -
وشهقاته : انظروا ، انظروا ما فعلوا بي ! وظهره خضيب بخطوط
محتقنة حمراء زرقاء يوشك ان يبضّ منها الدم - آثار سياط غليظة
لينة مرنة ضربت بها سواعد بطاشة منتقمة .

عرفت سعاد الفتى . هو سلمان ، راع اجير في الحي . هو غير
نصر على كل حال . وفهمت ان هذا الضرب في ظهره انما أمر
به ابن ام الحكم ونفذه فائق . وما السبب الا ان سلمان طلب ان
يورد قطيعه ماء الغدير الذي يخيم حوله الوالي بجنوده وخيله .

كرهت سعاد من الفتى كثرة نحيبه ، فانه شيء تنبو عنه
الرجولة . لكن لينحب سلمان ما شاء . ليس في الموقف كله ما
يحمل سعاداً على الطمأنينة . ابن نصر ؟ أوف موعد أبيه الى الحي
ولم يؤب ... وتصورته ، هو الآخر ، يطلب ان يورد قطيعه ماء
الغدير ، فيأمر بأخذه هذا الجلف الوغد فائق ويضعه تحت سياطه
المشعبة اللاسعة . يا للفجيعة ! كيف تصنع ؟

ثم سمعت في كلام الناس حولها : ان من خرجوا بالقطعات
هذا اليوم لم يرجع منهم احد بعد ، الا هذا الفتى المذكور سلمان ،
رجع دون القطيع . فلعلهم ساقوا القطعان الى ماء بعيد ليوردوها
اذ منعهم الوالي ماء الغدير القريب . فاطمأنت شيئاً . ولكن هل

تخلص لها طمأنينة ونصر لم يعد ، وصورة واحدة لا تنفك تراود مخيلتها : صورة ابن عمها تحت سياط فاتك ؟

وما اكثر ما تكلم الناس حولها في تلك الدقائق القليلات التي لاحت لها اطول من دهر . منهم من قال : لا حق لابن ام الحكم ورجاله ان يمنعونا الماء . سنحتج حتى الى الخليفة معاوية . ومنهم من قال : تملك مواشينا عطشاً قبل ان يبلغ الاحتجاج دمشق ، ثم ما عسى ان تصنع دمشق ؟ خير ان نحتج الى الوالي نفسه . ومنهم من قال : وما جدوى الاحتجاج ؟ يجب ان نجلبهم عن الماء عنوة . وهذا النذل فاتك ينسى انه نشء هذا الحي ويتغطرس ، فينبغي لنا ان نريه ما قيمته ولو كان جندياً في حرس الامير . ومنهم من قال : هذا عصيان ربما جرّ علينا الخراب . وابن ام الحكم لن يقيم الدهر كله على الغدير . فلا بأس بالصبر اياماً نورد فيها قطعاننا احدى الآبار البعيدة .

وسعاد شاخصة يقع هذا الكلام في سمعها وكأنه طنين غامض مشوش يأتيها من موضع سحيق . حتى بدأت تفقد القطعان ووراءها رعائها . وصحّ تقدير من قدر انهم ساقوها الى مياه اخرى بعيدة للشرب .

ولمحت سعاد نصراً فانفرجت اساريرها وذهب الثقل عن صدرها . انها لغبطتها ذهلت ، او كادت تذهل ، عما وقع لها في نهارها .

ولكن نصراً قابليها بابتسامة مغتصبة . كان يبدو على وجهه ألمٌ ممضٌ أنشب أنيابه في سريره . أترأه علم شيئاً مما حدث لها في يومها ، ام ان تسيبج الوالي على الغدير غمته هذا الغم ؟ وترددت

سعاد لحظة في ما يبدر منها اذا هما اصبحا داخل الحيمة . تحاذلت امام العاقبة المحتملة ، ثم آبت الى عزمها ان تنبئه بكل شيء .
فما احتواهما سقف الحيمة حتى انطرحت على صدره فطوقته .
وشعر بحرارة دموعها على عنقه . وقبل ان يستطيع كلاماً ،
اندفعت تقص عليه في ايجاز . قالت له :

— كنت على حق ، يا نصر . انما قصدت امي ان تعرض جمالي على الوالي . وصدفت الى جانب الوالي ذلك الجلف فارتكأ . بلاء على بلاء . فهربت لا ألوي على شيء . فتبعني العجوز ثمحدثني بان الوالي يتزوجني اذا انت طلقني . وأرتني ديناراً من ذهب اعطاها اياه ، وأظنه دفعة على حساب ... فلترحل ، يا نصر ، عن هذا الحي . فلنمض . اني اشعر ان المؤامرة بدأت ولم تنته . اشعر ان الفاجعة لا بد ان تدركنا اذا لم نستعجل .

قال لها بصوت ينم عن الثقة بالنفس وهو يربت على كنفها يحاول تهدئتها :

— فلنسأل الله ان يلطف بنا .

ولبت هنيهة لا يجد ما يزيد على هذه الكلمة . فكر في توبيخ سعاد على مخالفتها رغبته ، وعلى وضعها الشفقة في غير موضعها ، وكيف جار لها ان تشفق على مثل هذه الام التاجرة وهذا الاب الضعيف في ارادته وفطنته . الا انه علم ان سعاداً في حاجة الى الرحمة لا الى التوبيخ . وعلم ان هذا التوبيخ مهما يكن حقاً فلن يجدي فتيلاً . فصرف تيار نغمته الى هذه العجوز الملعونة — امرأة عمه . أيقتلها ؟ أيقتل الوالي ؟ ثم ماذا ؟ حياة مشردة او تسير على خشبة ؟ وليس الانتقال عن هذا الحي

انى سواه بأجدى . فاذا أصر الوالى ، لم يعجزه ان يطلبه في الاحياء كلها . ونصر اليوم رعى القطيع لاحد موسري الحي ، وهو موفق في عمله ، ولن ينقضي العام او العامان حتى يصبح مالك قطيع صغير ، فيستقل بنفسه ويستغني عن خدمة الناس . فكيف يغادر الحي ويترك جهوده كلها كأن لم تكن ؟

وأقام صامتاً يتخبط ذهنه في هذه الشبكة المعقدة من الحيرة ، وسعاد ما تنفك نظوقه . وقد اطمأنت الى قرره اطمئناناً لذيذاً وكفت دموعها عن الانحدار . فقبلها قبلة رقيقة في جبينها ، واقصاها عنه برفق وهو يقول :

— لا عليك . سنرى ما نضع ... ضعي العشاء .

وأكلا لقيمت في غير ما شهوة الى الاكل .

والناس في خارج ما انفكوا محتشدين تتأدى اصدااء احاديثهم في هدأة الليل الى داخل الخيمة ، فتزد نصرأ الى هذا الحادث العام الذي امسى شغل اهل الحي لا شغل لهم إلاه . فقد حرم ابن ام الحكم ورود ماء الغدير ، وقد امر بجلد احد الرعيان جلداً وحشياً نفذه هذا النذل فانك ... سأله سعاد وكأنها تقرأ افكاره وهي تدفع في حلقها غصباً بآخر لقمة :

— هل سمعت ، يا نصر ، بما اصاب اليوم هذا الراعي المسكين

سلمات ؟

قال لها بصوت جاف :

— نعم سمعت وكنت شاهداً . لقد تقدم في طليعتنا عند غروب

الشمس يطلب ورود الماء بقطيعه ، فتصدى له فانك وهو يقوم على حراسة الخيم ، فصاح به : لا ماء ! عد من حيث اتيت . ولو تح

في وجهه بسوطه المشتبب الاطراف . قال سلمان : ولكن الغدير
لاهل هذا الحي ، ولا بد للقطعان من شرب . انتهره فانك وصونه
يزداد ارتفاعاً وغلظة : اذا امر الوالي ان لا يرد احد هذا الغدير
قبل ان تنتهي ايام صيده في هذه الناحية . انكم اذا وردتموه
بمواشيكم فلن تصدروا عنه الا وقد جوي الماء . ويجب ان يبقى
الماء صافياً نظيفاً لمولانا الوالي . قال سلمان : اذا ، تهلك مواشينا .
فالماء الآخر شاسع عنا ، اذا سقنا اليه قطعاننا رجعت عطشى
لطول المسافة . ولا يمكن ان يكون الوالي امر بهدا الامر .
وانت ، يا فانك ، من ابناء حيتنا ، فهل يليق ان نأخذنا بهذه المعاملة
الصلفة ؟ قال له فانك وفي صوته نبرة من نباح الكلب العضوض :
انتظر يا هذا حتى اريك ما امر به الوالي اذا عاندا احدكم او
اعجبته فصاحته في الجدل . انتظر حتى اريك ما تكون معاملتي
الصلفة . ونادى بجنديين ، فأسرعا بسحنة متجهمة ، فبطحا سلمان ارضاً
ورفعا القميص عن ظهره البارز الاضلاع . فانشأ يبكي ويصبح
حين فهم ما يراد به . وتقدم فانك فجعل يرفع سوطه على مدى
ما تمتد يمينه ، ثم يرد السوط فيهبوي صافراً فاحاً فجميع الحيتة
على ظهر المسكين وهو يستنجد بنا ويستغيث . لكن اخذنا
الوجوم جميعاً للمفاجأة . فلم نرَ ما نصنع الا ان نضم قطيعه الى
قطعاننا ونقصد الماء الآخر البعيد . وقد لبثت الوقت كله افكر
في هذا الوجوم الذي جثم علينا وهذا الموقف المخدول الذي
وقفناه . وكان رأي رفاقي من رأيي . على اننا انفقنا ان تنتظر
قرار اهل الحي . وسأخرج الساعة الى الناس فأرى ما صحت
عليه عزائمهم .

ونفض نصر وانجه الى باب الحيمة . فنهضت في اثره سعاد
وامسكت بكمّ عباة تتوسل اليه ان لا يعرض نفسه .

قال لها وقد جمدت عيناه على عينيها الضارعتين :

— سنى . نامى ، يا حبيبتي ... وقبلها في الفم قبلة خفيفة .

ومضى . فتبعه صدى ناحب يدعوه : توقّ ، يا نصر .

وطال حديث اهل الحي واخذهم وردّهم في القصية . واقترح

الشيوخ اصحاب القطعان الكبيرة تأجيل القرار ، وانصرفوا الى
النوم .

وبقى نصر ونفر من الفتيان قرروا ان لا ينبغي لهم ان

يبيتوا ليلتهم على خيم .

ومشى نصر الى خيمته مطمئناً الى القرار . شيء واحد ظل

يقلقه . أأنكون سعاد مفيقة ؟ انها قد نشي عزمه ، فاذا اقدم على

العمل كان اقدمه بقلب ثقيل . ودخل الحيمة على رؤوس اصابعه

كأنه شبح سارق يتسلل . فسمع انفاساً تنصاعد ناعمة رقيقة . سعاد

تنام !.. ارادت ان تبقى مفتوحة العينين ، ولكن العناء وزحف

الليل غلباها على ارادتها .

— نامى ، نامى . ساعود . قال لها بهمس خفيض رقيق كأنفاسها .

ومضى وثبداً الى موضع قوسه ونشابه ، تجحظ عيناه متمستين

في الظلمة . وتناول القوس والنشاب ، ثم تمهل هنيهة يتأمل هذا

الحيتا الوادع ، محبا زوجته ، في هدوء الرقاد . واشتهى ان يطبع

على جبينها قبلة يتزودها زاداً . فمن يعلم ما يحدث ؟ لكنه بدل

ان يفعل ، حوّل وجهه نحو باب الحيمة ولحق برفاقه .

وقال سلمان الذي أكلت السباط ظهره في ذلك اليوم :

أعازمون انتم ؟

اجابوه : وهل ترتاب ؟ ان في سؤالك نبرة من تردد .
قال وهو يوشك ان يجهد بالبكاء : انني مهدود الجسم اليوم .
لو انتظرنا ما يقرره الشيوخ في غد .
قال نصر : كان يجب ان يزيدك ما لقيت اليوم قوة . امكث
ولا تطاب الاعذار .

قال سلمان بصوت شبه بالمواء : اعذروني . اكاد ، ايها الرفاق ،
انمد ارضاً فأدفن وجهي في الرمل خجلاً منكم .
اجابه نصر : كلا ! لا تفعل هذا بوجهك . لكن اغرب به
عنا .

وانقتل ماضياً في طريقه . وجدّ في اثره سائر رفاقه .
كل شيء مجلبب بالصمت في هذا الحلي المكتوم في جوف
الصحراء . ما من نأمة في كل ذلك المدى الفسيح من الدنيا حولهم
وامامهم . السماء ايضاً خرساء بكاء . نجوم وكواكب محايدة في
عزلتها الرفيعة القصية . لا صلة لها بالعالم السفلي إلا هذه الاشعة
المبهوتة التي لا تعطي خبراً ولا تأخذ .

حتى هذه الحفنة من الفتيات تمشي موهلة في الصمت ، يفسحق
الرمل تحت اقدامها في شبه صوت متوجع اباح مقطوع الصدى .
وتنبض قلوبها منفعة ولكن في اتراف ، متحدة كجوقة تعزف
الالحان ولكن في كتمان عميق الغور .

واشرف الفتيان على محيم ابن ام الحكم . هنا ايضاً سكوت
ناشر جناحيه . وهنا لوحة مبهمّة على البعد لا تبين تفاصيلها . وجحظ
الفتيان جميعاً باعينهم يستوضحون اللوحة . ورفع نصر عينيه الى

الاعاني كأنه يسأل النجوم ان تقوتي حبال نورها على الارض . ثم انبطح على اضلاع صدره يزحف الى اقرب فأقرب من الخيم . وفعل فعله الفتيان .

اكتظ رأسه بالأفكار ... هذه قوسه ومعهها الشاب . تذكر انه صرع بها ذنباً . ووعد يوماً بان يفلق بها قلب فانك . فهل ما زال فانك على حراسة الخيم ؟ وأحسن في صدره بغبطة وحشية . ولو رأى عينيه ساعتئذ في مرآة لهاله كيف تتوهجان في الظلام . لكن ربما نبحت كلبة فأفسدت كل شيء . يجب ان يكتم حتى انفاسه المتسارعة .

ها هي اللوحة ، لوحة الخيم ، تصبح لديه اكثر وضوحاً . وعلى باب الخيم شبح يذهب ويحيى وظله ينسحب مديداً ادكن اللون على الرمل المتشع بالاضوء . اترى يكون هذا الشبح فانكاً هو إياه ؟ ان عدل الاقدار يكون خرافة ان كان لحم هذا الشبح ودمه رجلاً غير فانك .

ورفع نصر صدره شيئاً عن الارض . وركب السهم في قوسه وركزها على كتفه . ثم أقفل عيناً ، وضافت عينه الاخرى في تصويبة محكمة . وشد الوتر يخترق متانته . إنه صامد وثيق . فشدته هذه المرة بجماع ما في ساعديه من عزم وكانت القوس نصف دائرة فتحوالت بين يديه ، بقوة الشد ، الى بيضة عظيمة ... لحظة ... ترى ، هل تقضي هذه النشابة برأسها المحدد المسنون الى حيث يرسلها - الى تلك النقطة ، نقطة القلب من ذلك الشبح ؟ لا ريب ! لا ريب ! يستحيل ان تخونه يده وعينه في الرواية اليوم .

وانفلتت الاصابع التي كانت منضمة على الوتر واسفل النشابة

انضمام الكلابة من فولاذ . وانطلق السهم يفتح في الهواء . وفي تلك الدقيقة التي حثت القوس واختلجت كمن تحرر من جهد جهيد ، هوى الشبح يخط الأرض بثقل بدن هامد لم تصعد منه الا صرخة توجع بتوت بترأ بمفاجأة الموت .

صرف نصر وجهه عن الخيم ودار ، مبطوحاً أرضاً ، صوب الحي . واقتدى به رفاقه . ثم طفقوا يدبون جميعاً مسرعين على الأيدي والركب . خيل لهم ان كلاباً انفجرت بنباح ، وان خيم الوالي بات يعج بالحركة ، وان الحيل تحفر الرمل بجوافرها خباً في اثرهم . لكن كلاً . يا لمبالغات الوهم ! فيما انفكت السكينة رابضة مع الليل ربوضها الاول .

ومضى كل من الفتيان لسبيله ساعة بلغوا الحي بعد ان تمهلوا ريثما اقساموا ان تكون صدورهم قبرا عميقاً للسر الخطير . وقالت سعاد لنصر اذ دخل الحيمة يبوطء على رؤوس اصابعه تكاد لا تحسه الأرض :

— اين كنت حتى الساعة ؟

قال لها ، واسرع ذهنه الى حيلة فمضى على الاثر في ظلام الحيمة لوضع قوسه ونشابه في الزاوية :

— ألم تنامي بعد ؟

أجابته : نعم ثم أفقت فتلمستك الى جانبي فلم أجذك . قال : اطلنا السهر ونحن في حديث ابن ام الحكم وما يجب علينا ان نفعل .

ودنا فاضطجع الى جانبها ومسح على جبينها بيد رقيقة ، ثم اغمض عينيه متناوماً .

قالت له وقد ادارت رأسها فحطت عينيها على وجهه :
 - أجل ، نعم يا نصر . اني الملح من خلال سجن الظلام عناء
 شديداً منطبعاً في قسائك .

... مع الصباح الباكر ، هجم على الحي نفر من فرسان ابن
 ام الحكم مرغين مزبدن شامخين تقدر عيونهم الشرر . لقد وجد
 الحارس ، الذي كان يخفر مخيم الوالي ليلًا ، مفلوق القلب بسهم
 شديد . والقرائن توقع الشبهة على اهل هذا الحي . فأمس اتفق
 للحارس القتل ان جلد راعياً من رعاة الحي لانه اصر - مخالفة
 لامر الوالي - ان يورد قطيعه ماء الغدير الذي ضرب حوله الخيم .
 وفي الطريق بين الخيم والحي آثار ارجل لم يمض عليها وقت ،
 وآثار دبيب وابدان سحبت نفسها على الرمل سحباً .

وقد طاف الفرسان بالحي شارعين سيوفهم ، واهل الحي
 منزوون جميعاً صامتون على هلع وغبط - الا الصبية الصغار لبثوا
 في طراوة الصباح يتواثبون فرحاً ويفردون ضحكاً . اعجبهم
 البسة الفرسان وسيوفهم وخيولهم ، حتى اذا ادركوا الحقيقة
 جمدت الحركة في مفاصلهم واختنقت ضحكاتهم وقسا السريق في
 نظراتهم . ثم حادوا يجمعون الحجارة بتلك البساطة الطفولية التي
 لا تهول على صاحبها بقوة عدو .

وألح الفرسان في طلب هذا الفتى الزري الذي جلده فانك
 امس . وانهم ليتذكرون وجهه جلياً فقد شهدوه . ولا بد ان
 تكون آثار السياط ما زالت بادية في لحمه . فلم يصعب عليهم ان
 يجدوه . ذلك ان الخوف ستر سلمان في وكره تسييراً فوق
 فريسة سهلة رخيصة . وساقوه سوق غنمة ذليلة ، يتحدون به

اهل الحى ذلك التحدى الفاجر الذى يجيده « عملاء » السلطة
الغاشمة حين لا يقارمهم الشعب . فكأن هؤلاء « العملاء » الذين
يقومون بدور العبد النذل ، لدى السلطة الغاشمة ، يرون لذة
وترضية فى ان يقوموا بدور السيد المتغطرس امام الشعب
المسكين .

على ان فرسان ابن أم الحكم لم يخرجوا من هذه الزيارة
يومئذ الا بوداع لائق . فان صبية الحى زودوهم بكل ما
استطاعوا ان يجمعوا من سمجارة وبعر جمال ، وبكل ما استطاعوا
ان يحفظوا من قاموس الشتائم .

وفهم فى الحى ان فائكاً قد لقي مصرعه . فلم يجد احد سبباً
للحزن عليه سوى اهله . بلى ، تظاهر بالحزن اولئك الذين خافوا
انتقام الوالى من الحى كله ، وتمنوا ان يفتدى الامر كله بالراعى
المسكين .

اما نصر فارتدى وجهه قناعاً حجرياً جامداً ساعة تفرست فيه
سعاد تفرساً ذا مغزى وهى تسأله :

— هل كتبت عني شيئاً فى الليلة البارحة ، يا نصر ؟

فأجابها فى غير اكتراث :

— اختصرت لك الحديث لاننى كنت تعباً جداً . والآن ،

يجب ان اخرج بالقطيع .

فسكتت سعاد لا تحيىر . ثم انهكت فى بعض شؤون
« البيت » . وفطن نصر الى امر فاغتم غفلة سعاد ، فاخذ بقية
سهامه ، فدسها تحت عباءته ليدفنها فى موضع خفى بعيد عن
العيون التى يمكن ان تقارن بينها وبين هذا السهم الذى صرع

به فائك . ثم ساق قطيعه الى المرعى على مألوف عادته .
وفي المرعى فكر نصر في حاله . ان ثقته بأصحابه لا تحتل
الوهن او الضعف . لكن لم يكن سلمان ، هذا الفتى الرخو الفقار ،
في الحسبان . لقد جره جنود الوالي وسيلصقون به التهمة ويعذبونه
ويهددونه بالقتل ، فلا يترك عندئذ شيئاً يعلمه الا قاله . وهو يعلم
بمخروجهم في الليلة البارحة الى الخيم ، ويعلم بقصدهم . يا للورطة
الحبيثة ! فما جال في خلده ان القضية ستدور هذا المدار .
لكن فليكن . ما العمل ؟ سوف يترقب . حتى اذا شمّ الخطر
نجا ، ومعه سعاد . وفي الصحراء متسع عريض . وفيها كثير
اشباهه من المتمردين المشردين ، او جماعة الخوارج ، يعيشون
مفتري التراب ، ملتحفى السماء ، معانقي السيوف .

الفصل السادس

كانت ام سعاد في ذلك اليوم قد بكّرت الى خيم الوالي بكوراً عظيماً ، بل ذهبت تحت ستر الهزيع الاخير من الليل ، غير عارفة بشيء مما حدث او يحدث ، تريد ان تلقى الوالي قبل ان ينطلق الى الصيد في مبرزغ الفجر .

فلما اشرفت على الخيام شاهدت في الغلّس شبح حارس يذرع الارض جيئة وذهاباً في خطوات عصبية . فتمنت لو يكون هو فاتكاً فيسهّل لها امرها . لكن لم يلبث ان راعها نفر من الفرسان يخرجون من الخيم فيلكزون جيّادهم مسرعين نحو الحلي الذي اقبلت منه . فأوجست خيفة وتنجّت عن طريقهم الى مخبأ توارت فيه حتى عبروا تتبعهم غمامة من غبار . ثم عادت تدلف نحو الخيم . ففطن لها الحارس . فوقف ينتظر دنوّ هذه العجوز الاعرابية الغربية التي تقصد خيام الوالي في مثل هذه الساعة بعد الذي حدث في الليلة الفائتة .

قالت له بعد ان دنت فألقت عليه تحية الصباح : تلطف ، يا جندي ، فأجبنى هل أفاق الامير ؟

فافتحها الحارس بنظرة فيها غلظة وجفاء . ثم قال لها :
- ما اوقعكم اهل هذا الحلي . يشرفكم الامير بنصب مخيمه في جواركم فتفتالون حارس الخيم ليلاً ، ثم تفد عجائزكم مع الصباح

الباكر يطلب الصدقات ؟ وإلا فماذا يطلب ؟ أليس للامير ان ينام حتى تأتيه في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا اليوم الذي جعلتموه مشؤوماً ؟ انصرفي !

اجابته بعد ان وقف ذهنها في تأمل هذه الانباء التي كشف لها عنها :

- كلا ! لست طالبة صدقة كما تظن . ولا علم لي بما حدث في مخيمكم . ولكن لي شغلاً عند سيدي الوالي .
ثم تشجعت فقالت له رافعة صوتها كالمنتهرة : امض فقل لسيدينا الامير - الاعرابية التي لقيتك هي وابنتها نهار امس واقفة بالباب تلتبس مقابلتك لشأن همك .

فتردد الحارس لحظة . ربما كان لهذه العجوز نبأ تفضي به الى الوالي - نبأ يتصل بمحادثة الليلة الماضية . وزادت ام سعاد في إلحاحها عليه . وعدته بالمكافأة من الوالي ، وهددته بالعقوبة اذا هو ردها . فما لبث ان دار على عقبيه فمضى يسعى في تسهيل امرها . ثم عاد مسرعاً فقال لها : ادخلي يا خالة . وفي صوته نبرة تهيب . لقد وجد ابن ام الحكم مستيقظاً . فحين سمع الامير بخبر العجوز امره ان يأتي بها دوناً ابطاء . ان مصرع حارس من حراسه شيء لا يحول دون الهموم الاخرى ...

وحيت ام سعاد ابن ام الحكم تحية تعظيم بليغة ، فيما الحارس ينسحب .

فقال لها ابن ام الحكم وبطنه مرتج وخداه منتفخان محتقان :
إنكم اهل هذا الحني خباء لا ترعون جواراً ولا قربي . ما كدت اضرب خيامي على غديركم هذا حتى وجدت فانكاً - وهو واحد

من حراسي وابن من ابناء حيكم - مفلوق القلب بسهم عند باب
الحكيم .

قالت العجوز كالتى فوجئت : وهل 'صرع' فاتك ؟ رحمة الله
عليه . ثم خشيت ان يجدّ الوالى فى حزنه على الحارس الصريع
فيعول ذلك دون دخولها فوراً فى موضوعها ، فسعت فى تلطيف
وقع الحادثة واستأنفت تقول :

- لكن هل تدري ، يا سيدي الامير ، ان فاتكاً هذا كان يطمع
فى سعاد ؟ لقد ذهب فى سبيله فليذهب .

قال الوالى : أوحق ما تقولين ؟ وطافت بذهنه ، حين 'ذكرت'
سعاد ، صورة المرأة الصبية المثلثة قوة وجمالاً وفتنة وإغراء ،
فتابع كلامه للعجوز : حدثيني هل وفقت فى المهمة ؟
اجابته : اوفق ان شاء الله وشاء الامير ان يساعدني فى بعض
الامر .

- ماذا ؟ ألا ترضى بنتك بطلاق صعلوك لتتزوج والياً ؟ ألا
يرضى صعلوك بطلاق امرأته ليتزوجها والٍ ؟ لعلك لم تطمعيها بما
سأبذل لهما من مال ؟

- ولكن ليست هذه بالسبيل التى تنجع . بقي ان تستعمل
سلطانك ، يا مولاي ، فتأخذ بالشدة حيث لم ينفع اللين .

- وبحك ! ألم تفهمي اني رجل لا يحب الحرام ؟

- معاذ الله ان ادعوك ، يا سيدي ، الى حرام والبنت بنتي .

وخفضت العجوز صوتها الى مثل الهمس وهي تقول : لئسكني
ادلك على طريق ... ان زوج سعاد يرعى القطيع لبعض موسري
الحي عندنا . يخرج بالقطيع كل يوم ، فلا بد ان يسرح به اليوم

في هذه النواحي او في قريب منها .

قال الوالي : ثم ماذا ؟

اجابته : فاسهل شيء ، اذن ، ان يلقاه رجالك فيركبوا عليه ذنباً تأخذه به فتسجنه . واين لسعاد عندئذ من يقوم بنفقتها ؟ فلا يكون لها بد من ان ترضى بطلاقه خوف الهلاك جوعاً ، او يخضع هو لطلاقها اذا وعدته باطلاقه من السجن او اغريته باغراء آخر . فان عاند هو او عاندت هي ، جاز لي ان اتقدم اليك بدعوى الفصل بينهما حرصاً على حياة ابنتي ان تهلك جوعاً بانتظار زوج اقترف ذنباً ، فسجنه الوالي فعجز عن اداء النفقة لامراته . فاطرق ابن ام الحكم هنيهة ، يمشط لحيته باصابعه ويفكر ، ثم قال لها كالمداعب :

— لعنك الله من خبيثة ماكرة !.. ما اسم صهرك ؟

— نصر .

— انصرفي الآن .

فتحركت في ثقفل . كانت تريد ان تعلم هل وافق الوالي على ما رسمت له من خطة : غير انه لم يزد لها حرفاً على ما قال . فتشاءمت . ثم تفاءلت لما قذفها بدينار من ذهب اتبعه ابتسامة ذات مغزى .

وفيا العجوز تدير ظهرها منصرفة قابضة باصابعها الجافة الحشبية على الدينار ، اذا بالحارس يدخل على ابن ام الحكم معلناً له قدوم وفد من كهراء بني عذرة يريد مقابلته . فاغتتمت ام سعاد فرصة خرجت فيها مستعجلة لئلا يذكرها الحارس بما وعدته به من مكافأة !

ثم كان المساء ، فطلع على الحي فارسان يسوقان قطيعاً من الماشية ثقیل الحطی مسترخي الآذان ، والفارسان يعتزان بأنها من رجال الوالي ، وانت الوالي اعتقل ذلك اليوم بدويّاً اسمه نصر كان يرعى هذا القطيع ، لانه نفر الطرائد مراراً وعكر الصبد على الامير . واطاف الفارسان : ثم قد كلفنا الامير ان ننادي بأهل هذا الحي انه سينجي الخيم عن غديرهم غداً ، فتستطيع قطعانهم ان ترد الماء . لكنه لم يفعل ذلك الا كرمّاً منه وتطييباً لحواطر الكبراء الذين زاروه ملتجئين . فلا قسيم تخيفه ولا نشابه ان كان منكم مجنون يفكر في استعمالها . ولقد استوثق الامير ان مصرع فانك انما كان بنزوة من شيطان ذلك الراعي القصير العمر الذي اراد ان يثار للسياط التي آكأت ظهره ساعة عاند في ورود الماء . وسيلقي الفتى جزاءه قتلاً بقتل . هذا مصير المعتدي . أعذر من أنذر !

وقفل الفارسان بعد ان تركا القطيع في الحي يتسلمه صاحبه . وبلغ سعاداً نبأ اعتقال نصر وسببه . عرفت ذلك من صبي اقبل واجماً على خيمتها يسوق ما كان لنصر من غنيمات ذابلة العيون كثيبة المنظر كأنما شعرت بما وقع لصاحبها . فصعقت سعاد لا تدري كيف تستقبل المصاب ... حقاً ان لها بعض عزاء في ان التهمة ليست خطيرة بقدر ما كان 'يحتمل ان تكون في مثل هذه الملابس . لكن نصراً قد بات ، مع ذلك ، سجيناً ، لا تعلم مدى ما يحل به من اضطهاد . فكيف 'يسجن نصر ؟ وما تفعل هي ؟ وعلام 'يسجن نصر ؟ فهل حق انه نفر الطرائد ؟ وهمّت بالبكاء مضضعة مشلولة منهارة .

لكن لامر ما ، اومض بغة في ذهنها ان امها يستحيل ان تكون بريئة من هذا الفخ الذي دفع اليه ابن عمها . فتألمت بقوة عاصفة من غضب ثارت فجأة في صدرها ، ولم تسلم لها دمة . حدثتها نفسها بان تهاجم امها فتمزقها باظفارها واسنانها ، واندفعت الى خيمة والدتها كأنها محبوسة في اعصار . فلم تجد الا اباه الشيخ مستغرقاً في ذهول وشحوب ، ترشح عيناه العمشاوان . اجابها لما صرخت به تسأله عن امها : والله لا ادري اين هي الشريرة ؟ وانفجرت دموعه حين علقت عيناه بعيني ابنته المضطربتين . فلم يملك سعاد ان تجيبه بالبكاء والشهيق . كانت على وشك ان تختنق لولا ما ارسلت من هذه الدموع الغزار الحرار .

ثم امسكت نفسها لعلمها ان ذلك لا يجدي . ولم تقل لابيها شيئاً ، لانها رأت سدى ان تستشير به بعد الذي ثبت لها من عجزه عن الرأي .

... ذهب بها التفكير الى الشيخ سالم ، وهو الذي يتولى نصر رعاية قطعانه اكثر الايام . شيخ طيب القلب نافذ الكلمة ، يحب نصراً على ما تسمع . فاذا استعانت به فقد يغيثها ، وقد يلتمس لنصر منفذ خلاص . ولم تكن سعاد تعرف هذا الشيخ الوقور الا من بعد ، وبينها وبينه مسافات في العمر . لكنها استجمعت شجاعة فقامت تطلب منزله . وأذن لها بالدخول الى خيمته . فلما علم الشيخ سالم انها امرأة نصر بشّ بها واطهر لها الرأفة . فارتبكت كيف تبدأ الكلام . ثم امسكت بخيط الحديث من اوله ، فراحت تقص على الشيخ قصتها كيف تزوجت نصراً على حب وغيام ، وامها تريد ان تستغل جمالها فتزوجها غنياً يدفع

لها مهرأ عظيماً ، ثم كيف استدرجتها الى لقاء الوالي الذي رغب في زواجها اذا طلقها نصر ، ثم كيف انتهى نصر الى السجن بمكيدة هي لا ريب من صنع امها وموافقة الوالي .

والشيخ يصغي بعطف الى قصة عرفها وسمعتها من قبل مراراً ، حتى جاء ذكر الوالي على شفتي هذه الصبية الجميلة العائرة الحظ . فبدا على وجهه امتقاع ، وقال لها وقد قبض على لحيته وطأطأ جبهته العريضة والعقدة بين حاجبيه :

— يا هذه ، انك تتهمين الوالي بأمر لا يليق ، وما اراك على حق . فنصر على ما سمعنا قد نفق طرائد الصيد من طريق الوالي . ومهما يكن من شيء فاني لا اقبل الدخول في شأن اعارض فيه ارادة اميرنا ، فامضي اليه واسترحمه .

فأحست سعاد بريح جافة لاهبة تلعفها لفحاً ، فتببس نبت الرجاء الذي كان قد شرع ينبت في صدرها . ونهضت متثاقلة مسحوقة النفس . وقبل ان تنصرف ، فطنت الى شيء فقالت له :

— لو اشتريت مني غنات نصر فضممتها الى قطعانك ، يا شيخ . فأنا في حاجة الى ما انفق .

فاجابها : حياءً وكرامة ... ونهض في بطاء وأناة ، فاخرج لها بعض دراهم ، ثم اردف يقول : هجيثي بالغنات او احفظيها لافرق . ولن اتركك للجوع يا بنية .

حقاً كان الشيخ سالم صاحب مروءة . لكن كانت تقف به مروءته كلما رأى خطر الاصطدام بالسلطان . فشكرت له سعاد صنيعه ، ووعدته بتعجيل الغنات اليه . وانطلقت كاسفة البال ، منكسرة النفس .

ولم تدر تلك الليلة ، وهي تتقلب في خيمتها ، هل قضت ليلة
واحدة ام زحف عليها دهر بكامله .
وخالت الصباح سيحمل لها فرجاً او يفتح لها سبيلاً الى
الفرج ! لكنها سرعان ما تبيّنت انها كانت ضحية وهم دفعتمها
اليه السذاجة فأسفر عن خيبة مرة .

الفصل السابع

كان نصر ، ساعة طلع عليه نفر من فرسان الوالي ، واقفاً بمفرده ينظر في الآفاق حوله ويبحث في ان يتبين الساعة التي بلغها النهار بعد ان اصفرّت اشعة الشمس ومسحت الارض مسحة ذهبية .

وبرغم انه بوغت باقتراب الجنود على الخيل ، وازدحت في رأسه الافكار المثيرة ، وتمنى لو لم يدفن قوسه ونشابهه ، فان وجوه الفرسان لم تنذره بالشر ، وعلى الاخص بعد ان حياه قائدهم متلطفاً وقال له :

— ارى من طول نظرك الى الآفاق انك تترقب شيئاً ، يا اعرابي .
اجابه نصر :

— كلا ، لست أترقب شيئاً ، ولكنني اتبين كم بقي من عمر النهار . فلا بد من ورود الماء البعيد بعد ان منعمونا ماءنا الذي خيمتم عليه . ثم لا بد من العودة الى الحي قبل اشتداد الظلام ، والا شغل بال اهلنا .

قال له القائد مستمراً في تلطفه لحطة كان يرتبها في سياسة هؤلاء الاعراب النزقين حتى يتمكن منهم :

— ولكن سمعنا ان مولانا الوالي عاد اليوم فعزم على ان

يأذن لكم بورود هذا الغدير القريب . فهيّا بقطيعك سر معنا .
فما اعجبت نصراً هذه الخدمة الفورية التي تطوَّع لها هذا القائد
ومن معه من فرسان ابن ام الحكم . فقال وهو ينظر في وجه
القائد نظرة مستريب :

- بشرتني بخير . على اني اؤثر ان يبقى قطيعي في مرعاه يقضم
العشب ، فما زالت في النهار بقية .

ولكن الفرسان انتشروا محيطين بالقطيع ، فجمعوه . وقال
القائد لنصر بنبرة لا تلتطف فيها هذه المرة :

- سق قطيعك ، يا اعرابي ، وامش به امامنا الى الخيم .

ففهم نصر انه غير مختار في الذهاب والبقاء . واحب على
الفور ان يعرف سبب هذا الاكراه ، فيعلم اي موقف هذا
الذي يواجهه ، واي مصير هذا الذي يتوقعه . فقال محتدأ :

- ولكن علام تكرهوني على المضي بقطيعي الى الغدير ؟ لعلني

لا اريد .

قال له القائد :

- وكيف تريد ، وانت ادري بما فعلت ؟

واذن ، فهذا الوغد سلمان قد خان السر فاسلمهم جميعاً الى انتقام
ابن ام الحكم . كذلك فكر نصر ، وعزم على ان يحمل التبعة
التي تقع عليه في غير ما طلب او انتظار للرافة .

وهنا ارتفع عليه صوت القائد يقول : اراك سكت كأنك
تقر بذنبك .

- واي ذنب ؟ لا حصر للذنوب التي يمكن ان يرتكبها امرؤ

حين يقنط من عدالة الحاكمين .

— ولذلك لبثت اليوم نهارك تنفر طرائد الصيد من طريق مولانا الوالي .

وعجل القائد على جواده حتى حاذى نصراً فساله بسوط من كتفه الى خصمه المقابل . فلم يحس بألم الضربة وان هو سمع صدى صفقة السوط كأنها آتية من بعيد . لقد كان مغتبطاً بأنت التهمة التي وجهت اليه لم تكن تلك التي يحشاها . فصاح به القائد مغضباً :

— ويك تتجاهل سوطي ذهاباً بنفسك مع الكبرياء . رويدك حتى نصل الى الحميم فترى كيف أنضج جلدك .
أجابه نصر :

— وعلام غضبك ؟ اني اجتهد ان اذكرك في اي منام نفرت طرائد الوالي .

قال له القائد مرعداً :

— وتتهكم ، يا أعرابي السوء .

فرم نصر شفتيه ما ينبس . وفكر في سعاد ساعة يأتيها نبأ هذا البلاء الذي حل به ، فتألم لها باكثر مما تألم لنفسه ، وعصر قلبه حزين " مرهق ...

ولقد بر القائد بوعيده ساعة الوصول الى الحميم . امر بأن تشد يدا نصر ورجلاه ، ويبطح على وجهه أرضاً ويرفع عنه القميص . ثم راح ينضج جلده بالسوط في يده ، وهو لا ينتظر شيئاً كأن يشنف اذنيه بالاصغاء الى صوت هذا الاعرابي يتوجع ويسترحم ويبكي وينهار . ولم تكن بين نصر والقائد عداوة سلفت فيتشفى به مثل هذا التشفي . ولكنه اعتبر اهانة له ان لا يموء الرجال بين

يديه ، تحت سوطه ، كالتقطط . فماذا يقول عنه الجنود اذا هو لم
يستطع ، بكل ضربة من سوطه ، ان ينتزع صرخة ألم ممزق من
أعرابي ؟ بل ماذا يقول عنه ابن ام الحكم وقد امره ان يرهب
هذا الاعرابي ويكسر نفسه كسراً ؟

على ان نصراً آثر ان ينشب اسنانه في التراب ويعض الارض
فلا يصيح . وامسك ببدنه ان يتلوى تحت سوط هذا الرجل الذي
بات ، لشدة الغيظ وبذل الجهد ، يتصبب عرقاً ويلهث كأنه هو
المضروب لا الضارب .

واخيراً ركل القائد نصراً برجله ، ورمى بالسوط بعيداً كمن
يئس من مستحيل . وقال لبعض الجنود وهو يقتل شاربیه بحركة
عصبية كأنه ينتقها :

— انقلوا هذا الكلب الذي جلده جلد تمساح الى خيمة فاسجنوه
فيها حتى يرى مولانا الوالي رأيه فيه .

فدنا الجنود من نصر فرفعوه . فجعل يتف من فمه التراب .
ولم ينطق بكلمة الا حين اراد جندي ان يرد قميصه على ظهره ،
فقال له :

— بل اتركني مكشوف الظهر ، لا يعلق بقميصي ما لا بد ان
يكون نزاً من دمي .

فأطاعه الجندي وهو ممتليء اعجاباً بتجلد هذا الفتى وكبريائه
على الألم .

لكن لا شك ان ما عصف في نفس نصر من الألم المعنوي
خفف عنه نهشة الألم البدني .

وتشاور الجنود فيما بينهم سراً ، بعد ان حملوا نصراً الى خيمة

سجنه فألقوه ارضاً ، مبطوحاً على وجهه . ثم خف احدهم فجاء
بدهن دهنوا به ظهر نصر ، فأطفأوا عنه بعض ما اخذ يحسه من
حريق اذ بردت عليه آثار السباط .

وقال له احدهم حين رأى سجنه تنقلص بنوبات المص
الشديد :

- لا عليك ، فانك لن تلبث بضع ساعات حتى تستريح على
هذا الدهن ، فكان الذي كان لم يكن .
وبقي نصر مبطوحاً على وجهه ارضاً ، في الخيمة ، يتماهل
منفرداً ويتعذب ، لا بما ناله من بلاء بل بعجزه ان يركز
افكاره على فرار . فقد اجتراح ذهنه تشويش غريب . فما معنى
ان يأخذه جنود الوالي هذا الاخذ العنيف بتهمة ملفقة كل
التلفيق ، بعيدة جداً عن التهمة التي يخشاها وهي اعظم
خطراً . ألا إن في الامر للغزأ غامضاً ، وربما كان مقدمة بشر
يكون اثقل عليه من الشر الذي يصيبه لو انكشف انه صارع
فانك ... ترى ، أما من يد في هذا كله للعجوز ام سعاد ولطمع
الوالي في سعاد ؟

وفيما يتخبط ذهنه تخبط طائر في شبكة تورط فيها ، انسحب
النهار بضوئه من الدنيا وزحف عليها الليل بظلامه ، فكان على
عيني نصر عصة اخرى فوق عصة هذا المجهول الذي يواجهه .
وهنا لقطت اذنه صدى خطوات تقترب من خيمته . فجمع
نصر شتات نفسه يترقب . واذا جندي يدخل عليه فيقول له :

- قم ، يا اعرابي . مولانا الوالي يدعوك .

قال نصر :

— لا استطيع النهوض وأنا مقيد اليدين والرجلين .
 فتقدم الجندي ففك الوثاق عن قدميه واعانه على القيام .
 فشعر نصر بمغازز الألم في ظهره لهذا الجبهة الذي بذله فحرك
 عليه جراحاً بدأت تجف وتتكمش . الا انه كابر ألمه ومشى متقوياً الى
 جانب الجندي ، يتلقى بوجهه رطوبة الليل ، حتى صار الى خيمة
 من حرير تعكس شعاع قمر صحراوي نقي البهاء . تلك كانت
 خيمة الوالي وقد انبرت في داخلها بمصباح يقع نوره على رجل
 بدين بطين ، اتكأ فوق مفرش من ديباج على وسادة كبيرة ، يشط
 لحيته بمشط غليظ الاسنان من اصابعه ، او يمدلك بيده وجهه
 السمين واللحم المترهل تحت ذقنه ، والى جانبه سيف عيار من
 غمده يتناوله ساعة يشاء .

وانسحب الجندي الى خارج الخيمة ، فقال ابن أم الحكم
 لنصر :

— أما تسلم ، يا اعرابي ! ارى انك غاضب .
 وارتسمت على الوجه اللّجيم السمين ابتسامة عجب لها نصر ،
 لانها نابية عن موضعها في هذا الموقف .
 واستأنف ابن أم الحكم يقول :
 — ما كان قصدي ان يوجعوك بالسوط الى هذا الحد ، مع ان
 ذنبك يسير .

قال نصر : اني اعجب من هذا الذنب الذي لفتتموه عليّ ،
 فمتى نفرت الطرائد من طريقكم ؟ ومتى لقيتموني قبل الساعة ؟
 ردّ ابن أم الحكم بصوت ناعم نعومة النفاق :
 — قد عرفت انك غاضب . فلا اجازيك بهذه النبوة التي

تخاطب بها واليك . قل ما اسمك .

— نصر .

— اصغ اليّ ، يا نصر . اردت ان اعوضك من هذا الذي وقع

لك بغير قصد مني . وستبتهج ان اصابك هذا البلاء الذي انساق
لك على اثره الخير الكثير .

قال نصر :

— ما انا بفاهم عنك . ولكن في ظهري آثاراً من سباط قائد

فرسانك تؤلمني ، وقد نالني ظمأً واعتداء .

ودار نصر فعرض على ابن أم الحكم ظهره الذي بقي

مكشوفاً .

فقهه الوالي كأن نصرأ روى عليه نادرة مضحكة . فعصفت

في نصر عاصفة من حقد كبتها فلم يطلق لها العنان . ولكنه لم

يتألك ان يدور فيستقبل الوالي بوجهه ويقول له :

— ضحك سيدي الوالي ليس بلسماً لجراحي .

فاجاب ابن أم الحكم على الفور بتصفية من يديه حضر

على اثرها خادم امره بان يمضي فيدعو طبيبه . ثم قال لنصر :

— جراحك هذه ليست شيئاً بذى بال : خموش من اظافر قط .

وسبعالجها طيبينا فلا نحس بها بعد الساعة . وسأمر بفك الوثاق

عن يديك . ثم تسمع مني ، يا نصر ، ما يعجبك ويسكن له غيظك .

واذا بالخادم ينقلب حاملاً معه جعبة وفي صحبته شيخ ، هو

الطبيب ، شابت لحيته شبة رمادية ، وانحنت كتفاه تحت رأس

قصرت رقبتة ، ومال الى امام . سلم على الوالي ، ثم نظر نظرة

في ظهر نصر وقال له :

— دهان مرة بهذا البلمس كافٍ لشفائك، يا اعرابي .
وتناول الجعبة من يد الخادم ففتحها عن قوارير اخرج واحدة
منها مسح بها فيها على ظهر نصر . ثم اخذ لفائف من قماش لف
بها ظهره وردّ عليه القميص قائلاً :
— انتهى كل الشر ان شاء الله .

فقال الوالي : تستطيع ان تنصرف ، ايها الشيخ... وانت ، ايها
الخادم ، تقدم ففكّ هذا الوثاق عن يدي ضيفنا .
وبقي نصر عاجزاً ان يفهم السبب في هذه المعاملة الطيبة . انها
لبادرة لها ما بعدها .

... تحلل ابن ام الحكم من انكائه على الوسادة فوق
المفرش ، وتنحنج تنحنجه الرسمية بعد ان خلت الحيمة إلا منه
ومن نصر ، ثم قال له :

— خذ لك مجلساً هنا على البساط وسلني ما تشتهي ، يا نصر .
فاني غاظتني المعاملة السيئة التي عوملت بها .
اجابه نصر وهو يجلس حذراً متشوّفاً الى معرفة ما عسى ان
ينطوي عليه هذا الموقف الغريب المريب :

— لا اشتهي شيئاً كأن تتركني الساعة امضي الى الحلي ، فان
لي ابنة عم تنتظرنني فيه وما ادري كيف تكون حالها الآن .
قال له ابن ام الحكم :

— أراك تكثر جداً لابنة عمك هذه ، فانت ابدأ منصرف
الفكر اليها . فهل هي تكثر لك ؟

وعلى الفور أحسّ نصر ان هذا الرجل البدين البطين السمين
الوجه الجالس امامه قد بلغ موضوعاً يهمه ، بل الموضوع الذي

يهمه بالضبط . وفي وضوح وجلاء ، استشف نصر اشياء كان يظن
الخدس يخيلها له تخيلاً ... لقد رأى ابن ام الحكم سعاداً مع امها
العجوز الخبيثة . وقد حدثته سعاد بما ابدي الوالي لامها من طمع
فيها . ثم ها هو اللئيم ، بعد ان اعتقله بتلك التهمة الملققة ورضي
عن تمزيق ظهره بالسياط ، يبدي له الملائنة لبصير معه الى حديث
سعاد . وأحس نصر بان إناء نفسه اصبح لا يتسع حتى لقطرة
واحدة اخرى من هذا العصير المر الذي يذكره على نجرته
والصبر عليه .

قال له ابن ام الحكم :

— ما بالك أطلت السكوت ؟

اجابه نصر مجتهداً في ان يكبح نفسه للمرة الاخيرة :

— سألت ، ايها الامير ، عن شيء لا ادري لم يعنك . حبذا لو

سألت كيف تشعر عامة الناس في هذه البادية تحت ظل ولايتك !

— اعلم انهم فقراء لم تسعدهم طبيعة هذه الارض التي ينزلونها

وهي صحراء بخرية . واعلم انك من اشدهم فقراً وحاجة . ثم لقد

أتاني نبأ صبرك وشجاعتك تحت وقع السوط ، فوجدت نفسي

عليك عطفاً ورافة .

ففكر نصر ان يقول له : ولكن ما علاقة هذا كله بسؤاله

عن العاطفة بينه وبين امرأته . غير ان نصرأ أدرك ان الوالي

يداوره ولا يحسر ان يكشفه حقيقة ما يرمي اليه من وراء هذه

المداورة ، بل المراوغة . فقال له :

— لا حاجة لي ، ايها الامير ، في شيء تخصني به دون قومي .

فاجلُ عن هذا الماء الذي منعنا وروده ، وارفع عن ظهورنا

سياطك ، ولا عليك من بخل الصحراء علينا .

الا انت ابن ام الحكم تظاهر بانك لم يسمع من هذا الكلام حرفاً . وعزم ان يشرع في هجوم خبيث يشنه على معنويات هذا البدوي الصلب ، فقال له مفاجئاً :

- يا نصر ، تظن امرأتك تكثر لك ، ولكنك فريسة وهم . انها تصدت لي هي وامها العجوز وانا عائد من الصيد وضيت ان تفارقك . وضاعت عينا ابن ام الحكم ، وهو يلفظ عبارته الاخيرة ، كثعلب يتظاهر بالنعاس والغفلة ليتمكن من الوثب على فريسة . كان يجتهد ان يتبين في جلسه اثر هذه الحرب : حرب الاعصاب . فاذا بنصر يغبر وتضطرب شفتاه وهو يرد السؤال بسؤال :

- وعلام رضيت ان تفارقني ؟

- لتتزوج والي امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان ، اجابه ابن ام الحكم بجواب مهيباً على شفثه ، وفي عينيه بريق شماعة لثيمة بهذا العذاب الذي نال به نفس الاعرابي .

فقال له نصر خلال انفاسه التي ازدحمت عليه :

- قد شعرت ، ايها الامير ، انك تراوغني هذه المراوغة كلها لتوصلني الى قصد تبتغيه . ولم يفتني قط ان امرأتي وامها تصدنا لك في الطريق . لكن امها العجوز هي التي استدرجتها . ثم ما بالك لا تقول انك طمعت في امرأتي مذ رأيتها ، وعزمت انت وامها عزماً آثماً تنفذانه بسلطان المال وسلطان الولاية . انك تقول ان امرأتي وضيت بفراقي ، وأقول لك : كلا ، لا يسعني ان اصدق . كلا لا يسعني ان اؤمن بأن مالك وولايتك تبلغ قوتها

هذا المبلغ . فاذا كان كلامك حقاً فاجمعني بامرأتي فتري ما تقول .
أجابه ابن ام الحكم :

- ولكنها صرحت بطلب طلاقك امام شهود عدول ، لعجزك
ان تفي لها بما يجب للمرأة على الرجل . وقد حكمنا بتطبيقها منك .
وقبلت ان تتزوجني . غير انها اشترطت شرطاً ان لا تواجهك ،
فهي تعلم مدى حبك لها وتكره ان تجرحك بكشف الحقيقة لك .
ثم انها اصررت لشفتها عليك ان نهب لك مالاً ونصرفك .

فعصفت بنصر عاصفة اقتلعه من مجلسه اقتلاعاً . أفيسكن ان
يكون هذا صحيحاً ؟ وانفجر صائحاً كأنه يريد سحق هذه البذرة
من انشك التي زرعتها في نفسه هذا الوغد المتآمر على سعادة الناس .
- كلا ، لا اصدق . انك تخدعني ، ايها الأمير . وما سجننتي الا
لتنفذ فيّ وفي امرأتي مكيدة حبكتها انت والعجوز من خيوط
النذالة .

قال له ابن ام الحكم وقد مدّ يده خلسة الى مقبض السيف
المصلى بجانبه :

- عد فاجلس ، يا أعرابي... ولا تأخذك الحدة ولا ترفع صوتك .
اني كنت عالماً بما يكون وقع النبأ عليك . ولذلك داورتك ،
رحمة بك ، هذه المداورة التي سميتها مراوغة . بقي ان تعقل وان
ترضى بما لا بد لك من الرضى به . سأعطيك مالاً يغنيك . وسأجعل
لك سبيلاً الى نسيان امرأتك من اخصر طريق .

وفجأة انحسرت شفتا الوالي عن اسنانه المنحساراً لم يدر نصر
هل ذاك ابتسام ام تكشير . ثم قال له :

- هل تشرب الخمر ؟

وقام من مقعده ، ببدنه الضخم ، قِيماً أسرع فيه وان كفه
جهداً . ومشي فضغط على كتف نصر يدعوهُ الى الجُوس ،
فجلس في حركة طَواعية كحركة الآلة . وتابع ابن أم الحكم
مشيته الثقيلة الى باب الحِيمة فصفق بيديه ، فدنا منه الحارس
ودار بينها كلام مهموس .

ثم عاد الوالي فاحتل مجلسه على المفرش ، ملقياً الى جانبه
السيف ، متكئاً بظهره على الوسادة ، حتى دخل الخادم يحمل
على طبق ابريقاً كبيراً بقم كالمنقار في طرفه انبوب مقوس
كعنق الديك ، وثلاثة اقداح من نحاس منقوش صقيل ، والواناً
من الطعام وضعها بين الوالي والاعرابي . ثم رفع الابريق فأماله
فامتد من منقاره حبل زيتي ذهبي صاف كأنه صيحة ديك في
السحر ، حتى امتلأت الاقداح الثلاثة ، وغادر الخادم الحِيمة .

فتناول ابن أم الحكم قدحاً وقال لنصر : خذ مثله . وافرغ
الوالي كأسه في هذا الضرف العظيم الذي هو بطنه .

فاما نصر فبقيت يده ترتعش بالكأس عند فمه . وغرقت عيناه
الذاهلتان في السائل الزيتي الذهبي امامه ، ولم يكن ذاقه من
قبل ، ولا كانت هذه هي المناسبة التي يشتهي ان يذوقه فيها .
قال له ابن أم الحكم وفيه يتمطق :

— اشرب ، اشرب !

فغمس نصر شفّيته في الكأس بتلك الحركة الطَواعية كحركة
الآلة . وامتص جرعة انسربت في حلقه ناراً مشبوبة . وثاب اليه
شعوره بهذا الشقاء العظيم الذي ينشر عليه جناحيه الاسودين ،
وادركته نوبة من سعال ، ودمعت عيناه ، واشتهى لو يرسل لدهوعه

العنان . غير انه ما زاد على ان مسح عينيه بحاشية من ثوبه .
 ففقه ابن أم الحكم حتى ارتج بطنه وقال له :
 - شيء لم تتعوده ، يا نصر . لكنك اذا الفته عرفت نعمته .
 وسيجزر بعد قليل من يفتح شهوتك له .

والحنى ابن أم الحكم يلتقم شيئاً من الطعام ويلاً لنفسه قدحاً
 آخر ، واذا بجانب من جوانب الخيمة يستزاح حريره كأنه ستار
 مسبل ، ليطل منه رأس معصب بعصبة حمراء ، اشقر بشرة الوجه ،
 تجول فيه عينان زرقاوان زرقة ظل السماء في الماء النقي .
 فقال ابن أم الحكم :

- اهلاً بشقراء . سأفرغ هذه الكأس الاخرى ابتهاجاً بطلعتك .
 وأمال الكأس في فمه حتى ارتفع اسفلها فقابل سقف الخيمة ،
 وسرحت منها قطرات علقت بلحمة الوالي ، فتألفت في الضوء كالندى
 الصباحي على أسلات اعشاب يابسة .

- وابن العود ، يا شقراء ؟ لم لم تحمليه معك ؟

فالتفت العينان الزرقاوان صوب المكان الذي خرجت منه
 صاحبتهم . ومشت المرأة بحقيها مشياً رقيقاً كأنها تظاً عيوناً نائمة
 وتسحب اذبالاً من نسيم . وغابت لحظة وراء الستارة ، ثم عادت تضم
 إبطها على بطن آلتها الموسيقية الحشي المنفوخ .
 وجلست ثالثة الاثنيين ، تبسم ابتساماً يظهر انه جزء من حرفة
 لم تتقن تعلمها بعد .

وناوفا ابن أم الحكم الكأس الثالثة التي كانت تنتظرها على
 الطبق . وعاد هو فملاً قدحه من الابريق الكبير وقال لها :
 - طالما تحدث ، يا شقراء ، عن شباب الروم . والله لتفسينهم اذا

عرفت شباب العرب من معدنهم في البادية . انظري ، كيف ترين هذا
الفتى البدوي الاسمر العذب (وأوماً بعينه الى جهة نصر) . لا
يملك ما ترين من ثيابه الزرية ولونه الممتنع وسهومه ووجومه .
سيُبدل هذه الثياب ويستريح من تعبهِ ، ويستعيد نضارته وصفاءه ،
فتشدين منه ما يساوي شباب الروم جميعاً .

فجوات المرأة عينيها الزرقاوين ، في تؤدة ، نحو نصر ،
والابتسامة الحرفية ما زالت منطبعة على ثغرها الشفاف الوضي .
وقابلها نصر بعينه ... فراغٌ وجود قابلاً فراغاً وجوداً ...

وقال ابن ام الحكم :

— هيا اشربي ، يا شقراء ، على معرفتك بنصر . وهيا اشرب ، يا
نصر ، على معرفتك بشقراء . ما احسنكما زوجاً وزوجة ! ... هل
اشجعكما على الشرب ؟

وقلب الكأس في الضرف العظيم . ودفعت شقراء دفعة من
الكأس في حلقها اختلجت لها عند الجرع جلدة نحرها البيضاء
الرفيقة . وغمس نصر شفتيه في الكأس غمسة لم يزد على ان رطب
بها جوانب فيه وهو يغصب نفسه على قبول الطعم غصباً تجلى في
انقباض سحنه .

قال ابن ام الحكم مقهقهاً :

— اعذريه ، يا شقراء . فهذا شيء لم يتعوده الفتى . لكنه سيتعوده .
وانقطعت فقهة ابن ام الحكم وبدا عليه خدر اخذ باجفانه . وثقل
عليه رأسه فألوى به على صدره ، واستقرت عيناه في القدر الفارغ
في يده .

ثم نفض رأسه نفضة كمن يستعيد صحوه وقال :

— شقراء ! ألا نسمعين شيئاً من غنائك وضربك على العود ؟
 فحسنت المرأة آلتها المنتفخة البطن ، وردت قائلة بلغة عربية
 دلت نطقها على أنها غير بعيدة العهد بها :
 — ماذا يختار سيدي ان اسمعه ؟

وانتقل الفكر بنصر الى ربابته ، واوجعه اليها الحنين .
 وقال ابن ام الحكم بلسان اصبح يدور ثقيلًا في فيه :
 — أنت ادرى بما احب ، يا شقراء .

فجعلت المرأة تعرك بأناملها اللدنة آذان الآلة الموسيقية ، وتنقف
 الاوتار المشدودة نقفات متقطعة تخبرها بها . ثم امسكت بريشة
 جعلت تضرب بها على الاوتار فتبهز كأنها في ذنب طاووس يجتهد
 في نقر الحب . وأناملها تتحرك على اطراف الأوتار عند آذان
 العود ، تضغطها ضغطاً او تنزلق عليها انزلاقاً ، فينبعث صوت
 صاف كرنين اجراس فضية ، تقع عليها ، وقعاً موزوناً ، مطارق
 دقيقة رقيقة . وفي احيان تحبس الانامل اللدنة الاوتار الطيعة
 حبسة شديدة ، وتنقرها الريشة نقرة قوية ، فتنتلق نغمة كالدمعة
 المنفجرة تلبث الاوتار على اثرها في اختلاج كأنها ترتعش بمسرى
 تبار عنيف خفي . وتنسبل الاهداب على العينين الزرقاوين كأن
 التبار الخفي سرى في قلب صاحبتهما فايقظ فيها ذكرى شجية .
 ... الى ان حركت المرأة الشقراء ، في العصابة الحمراء ، حنجرتها
 وفتحت شفيتها لتوسع سبيل الفضاء لصوت مؤنث ناعم ، يسيل مع
 نغمات العود خافتاً رقرافاً اول الامر ، ثم متموجاً في صعود
 مع ثورة شعور ينطلق من سجنه لاعجاباً محرقاً .

لبت تحقق الارباح فيسه أحب اليّ من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني أحب الي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي أحب اني من أكل الرغيف
وخرق من بني عمي فقير أحب اني من عالج عنيف !
- لا فض فوك يا شقراء ، لا فض فوك ! قل ابن ام الحكم ،
وفتح اجفانه الثقيلة على المغنية التي سكنت حنجرتها وانطبقت
شفاتها ، وماتت حركة اناملها وریشتها على أوتار العود . ثم ألوى
برأسه على صدره وضحك كأنه يخفي ضحكه في قميصه ، وتم
بصوتٍ حذر :

- قاتلك الله ، يا ميسون بنت بجدل الكلبية ، زودت هذا
الماكر زاداً بقي على الدهر !.. ولم يجسر ابن ام الحكم ان
يلفظ صراحة اسم هذا الماكر ، وهو الخليفة معاوية ، وقد قالت
فيه ميسون امرأته البدوية تلك الابيات او قيلت على لسانها .
فاستطرد ابن ام الحكم :

- حبذا لو ترقصين رقصة ، يا شقراء ، فتزيدي في سرور ضيفنا
واستغراقه في نعيم الغناء . والتفت الى نصر ، ونصر منخطف
سابع قد لج في سهومه ووجومه مع الموسيقى والغناء وما يغمر
نفسه من شقاء .
فاجابت شقراء :

- يعلم سيدي الوالي انني لا استطيع الرقص إلا ان يكون
من يعزف لي .

- اذن فلا ترقصي ، رد عليها ابن ام الحكم في عفوية تشبه
البلاهة ، وكأنه نسي انه هو الذي طلب اليها الرقص . ثم فغر فيه
في تشاؤمة كادت تشق شقيقه ، وألوى برأسه ، وفرش لحيته على

صدره .

وخيم على المجلس سكون ثقيل . لا حركة الا ان نحول شقراء عينيها الزرقاوين في تودة الى جهة نصر ، او يستقر نصر بعينه على جانب من وجهها يتأمل بشرته الرقيقة التي توشك ان تشف عن انسياب الدم تحتها .

وبعد ؟

شعر ابن ام الحكم شجرة ، هز على اثرها رأسه منتفضاً ، واسرع بيده الى السيف في جانبهِ ، وفتح عينيه مرأتين على الاعرابي امامه والجارية الرومية وطبق الخمر والطعام . وانفرجت شفاه عن ابتسامة صفراء . ترى ، اكان نصر حقاً يفكر في تناول السيف وضرب الوالي ضربة يطيح بها رأسه ، كما عرض لابن ام الحكم في غفوته القصيرة ؟

وشفع ابن ام الحكم ابتسامته الصفراء بتثاؤبه كبيرة ، وفرك عينيه فركاً عنيفاً وهو يقول :

... مجلسكما بارد مجضوري ، ايها الحبيبان . ساترككما فأنسحب لأنام . انما الساعة حبيبان . ثم انما غداً زوجان . اوصيك به خيراً ، يا شقراء . واوصيك بها خيراً ، يا نصر .

ونفض متافلاً ، وبيده السيف ، فمشى الى الموضع الذي اقبلت منه الجارية وغاب خلف الستارة ، فتمدد على الفراش . لكنه لم يستطع ان ينام ان كان قد نوى النوم .

ولبت نصر وشقراء في هذا المجلس الذي بهظه عبء من الصمت . وقد خطر لنصر ، اول شيء بعد انصراف ابن ام الحكم ، ان يشب على قدميه فينطلق من باب الحيمة فاراً تحت سحف

الليل . لكن كيف يصنع بالحارس الذي يذرع المكان جيئةً وذهاباً خارج الحيمة ؟ ثم كيف يصنع بمن في التحيم كله من خدم وجنود ؟ ان الشبكة حوله شديدة الاحكام .

وفطن الى العينين الزرقاوين تطبلان اليه النظر في سهومه ووجومه . كانت شقراء تتأمل شفقيه السمرائين الضمآوين ، فاذا بها تشيح عنه حين ادركت انه فطن اليها ، وتبتسم ابتسامة وازية وهي تقول له : ألا تشرب ؟ ثم تمد ساعداً من عاج الى الابريق فتملاً كأسها بالنائل الزيتي الذهبي وتجبرعه في دفعة واحدة .

فلم يزد نصر على ان يبل شفقيه بالخمرة ، كعادته ، وقال لها :
- إن لك لشأناً ، يا امرأة . فما شأنك ، اصدقيني .

فنظرت اليه نظرة طويلة نبعت على اثرها الدموع في عينيها الزرقاوين ، فدقت وجهها في راحتيها ، واضطربت كنتفاها بشهقات خنقتها لكي لا يعلو لها صوت .

فأعاد عليها نصر السؤال : ما شأنك ؟ اصدقيني ، اصدقيني اخبر .
فرفعت اليه وجهاً بليلاً بدموعها ، وجعلت تقص عليه حكاية طويلة مفعمة ألماً وعذاباً ، عرف منها نصر ان هذه المرأة الشقراء صبية رومية سبيت سبياً في احدى المعارك ، فأصبحت جارية تباع وتشرى ، بعيدة عن اهلها وملاعب طفولتها ، بعيدة عن نحب ، قد زاد في شقاؤها ونكد حظها ان سقطت بين يدي هذا الوالي الذي لها بها وقتاً ، ثم هو يريد الآن ان يزوجها نصراً ليتزوج بامرأة نصر كأن النساء بهائم او متاع يقايض مقايضة .

فأجفل نصر كأنه كوي على غفلة بقضيب من حديد حمي بالنار حتى احمر .

وحسبت شقراء انه استاء لما بدر منها ، وانه راضٍ عن هذه المقايضة ، فأسرعت تقول له :

ولكنني افضلك رجلاً على هذا الوالي المستهتر ، وافضل عليه رجلاً أياً كان .

واجتهدت في ان تبسم له ابتسامة صادقة لتقنعه باخلاصها في ما تقول .

فأجفل نصر هذه المرة ايضاً . وكان قد أجفل في المرة الاولى لما هاله من فظاعة الوالي . فخطر له في المرة الثانية ان هذه المرأة الفاتنة ربما كانت شريكة الوالي في مكيدته وانها تتبع خطة في استدراجه الى حبالها القانصة .

فقال لها وفي صوته نبرة قاسية :

— اياك ان تحاولي المستحيل . فاني رجل لا مطمع له في غير امراته . وبلغني هذا الوالي النذل الذي اخرجك لتستدرجيني . الى حبالك انه قواد بارع ، ولكنه خائن .

فانفجرت عينا الجارية دموعاً غزيرة ، وطأطأت رأسها ، وسترت وجهها بيديها ، واغرقت في النحيب .

فمس قلب نصر شعور من ندامة وشفقة غصَّره عسراً . وأوشك ان تغرورق عيناه في العبرات وهو يتأمل رأس هذه المرأة في العصبية الحمراء التي استرسلت من تحتها شعرات كأسلاك الذهب او كالخيوط الدقيقة من شعاع الشمس .

وهنا اهتز جانب الحيمة الذي اختفى خلفه ابن ام الحكم ، ثم بدا من ورائه بطن عظيم فوجه سمين فبدن ضخم ، بيده السيف . وانفتح فم يرشق الكلمات رشقاً ويهز معها لحية كأنها

مروحة يروح بها انسان يوشك ان يجتنق في يوم صائف .

صاح ابن ام الحكم يخاطب شقراء :

— اما تكفين ، ويحك ! عن هذا النحيب ؟ وأمسك بمنكبيها

فانفضها ودفع بها ، فتوارت خلف جانب الحيمة الذي خرجت منه ... « اذهبي ، اذهبي ، ايتها البومة ! »

ثم صاح بنصر وهز في وجهه السيف : اما انت ، ايها الاعرابي الكلب ، فسوف تعلم مصيرك اذا طال عنادك .

وصفق ابن ام الحكم ببديه ، فأسرع الحارس الى داخل الحيمة ، فجاء يقول له : جىء بحبال غليظة فاوثق هذا الكلب وجره الى سجنه حيث كان .

الفصل الثامن

مع ذلك الصباح ، صباح الليلة التي اعتقل فيها نصر ، طلع على سعاد فارس تصحبه أمها في ثياب جديدة زاهية من القماش الياباني ، أثارت دهشتها وأمرها الفارس بأن تسير وأمها فوراً الى محيم الوالي . فاعترض حلقها « قالب » من مادة لا تذوب برغم ما بلعت ريقها . واوشكت ان تنفجر باكية ساعة وقع نظرها على أمها ، لكنها تذكرت ان هذه العجوز لم تبقى جديرة بان ترى دموعها ، فعبست في وجهها تعبيراً حاقداً وقالت بلمجة ملؤها التحدي :

— إني مستعدة !

ومضى الثلاثة في الطريق الى محيم ابن ام الحكم . والعيون عليهم من كل صوب في الحي . أم ترى كانت العيون تلك ترمق ثياب العجوز الجديدة الزاهية ؟

... كان ابن ام الحكم ، حين مثلت بين يديه سعاد وأمها في خبيته الخاصة ، قد لبس أبهى ثيابه ، وتطيب بازكى عطوره ، وتربع في مكان عال ، طوراً يسبح بيده على بطنه ، وثارة يشط لحيتيه بأصابعه ، ويتنحنج تلك التنحنجة الرسمية التي تكاد تكون علامة فارقة بين « العظماء » و « الوضعاء » في الدولة . فقال لسعاد ، ونبرة صوته مزيج من اصطناع اللطف واصطناع الهيبة :

— آثرت ان اتخلف اليوم عن الصيد لاستدعيك فأراك .
أيسرك ذلك ؟

أجابته سعاد وفي حياها الفتي شحوب ونهكة :

— انما السرور ، ايها الامير ، لمن لهم السرور .

— ولم لا يكون لك السرور ؟ أملك محزونة على فائك ،
وقد سمعت انه كان يودك ؟

— ظن في غير موضعه ، ايها الامير . وانك ادرى بسبب حزني .

قال لها وكأنه لم يدرك اشارتها الخفية الى حبس نصر :

— ولكن سرورك سيكون عظيماً جداً ساعة تعلمين بهذا

الابتسام الذي غمرك به الحظ . لقد عزم ابن ام الحكم ، والي

الحليفة معاوية بن ابي سفيان على البادية ، ان يتخذك له زوجة .

فشعرت سعاد برعشة تنتابها ، وبمثل النار تشب في عروقها .

قالت له وقد تجاسرت عليه بنظرها الحاد :

— وكيف يجوز ، ايها الامير ، وانا امرأة متزوجة ؟

اجابها ضاحكاً :

— طبعاً ! اني رجل لا يكره شيئاً كما يكره الحرام . فلو

انك كنت باقية زوجة لزوج لما طلبت منك ما طلبت .

فتفرست فيه سعاد من شدة الدهشة وطاف بعينها خيال من

جزع . اومض في ذهنها ان نصراً قد يكون لقي حتفه في السجن

بمكيمة مدبرة . قد يكون رجال الوالي استفزوه فتارت به الحمية

فعاركهم فقتلوه . على انها لم يخطر لها ببال هذا الخبر الذي راح

يمزق به الوالي اذنيها . قال :

— كأنك لا تصدقين انك لست الآن زوجة لزوج . فاستعني .

لقد طلقك نصر . اغرته امك بالمال وبخسائه سواك : جارية رومية في حاشيتي ، شقراء بضه ، فتخلى عنك بشهادة اثنين من شهود عدول . ولقد عظم عليه ان يراك بعد الذي فعل ، فسألني العفو عنه ، وغادر السجن يضرب في الآفاق ليستوطن وزوجته الجديدة مكاناً غير هذا المكان .

ولم تخل العجوز ، ام سعاد ، من شعور بالمفاجأة حين سمعت كلمات الوالي . وقالت في سرها : حقاً لقد بزني الرجل في الحيلة والمكر . فما كنت والله ليخطر لي خاطر هذا النبأ عن زواج نصر .

اما سعاد فترب محياها . لم تبق فيه قطرة من دم . قالت : — ان كان نصر فعل ذلك فسأحبه الله . وان كان لم يفعل فسأحبه الله ، يا سيدي . اما انا فما ابغي زواجاً ابداً . ومولاي له في جوارى المدينة ومغنياتها ، وبنات المقاصير والحمامات في دمشق غنى عن جلافة الاعرابيات مثلي .

وعجبت سعاد من نفسها لهذا الهدوء الذي استطاعت ان تواجه به الموقف الصاعق . ولم تتمن شيئاً كأن تنصرف فتخلو الى ذاتها توصل العنان لما تحبش به نفسها . واستأنفت تقول بصوت خفيض لا يكاد يبين ، كأنه الانين :

— والآن ، هل يأذن لي سيدي بالانصراف ؟

فسمعت فجأة صوتاً جافاً يجيبها :

— كلا ، اذا اذن مولانا فاني لا آذن . وانا القيمة عليك .

كان هو صوت أمها . ما كادت تسمعه سعاد حتى أحست بزلزال عنيف ينتابها . ونظرت الى أمها تتأملها في هذه الثياب

الجديدة الزاهية عليها ، فخيّل لها انها تنظر الى حية رقصاء ، وانها لا تشتهي شهوة كأن تسحق رأسها . فاقشعرت حتى العجز تحت تلك النظرات . ورات ان تلين في الكلام هذه البنت المتمردة ، فقالت لها :

— احمدي الله ، يا سعاد ، على هذه المحنة . فقد كشفت لك مقدار الحب الذي كان يخلصك به نصر . انك كرهتني لاني اردت لك زوجاً ثرياً كريماً . وزعمتني اطمع في بيعك بالمال ، فهل لم يبعك نصر بالمال ؟ هل ثبت على عهدك حين حولت وجهك عن دنيا النعمة التي سخرها لك الجمال وقنعت بأن تكوني زوجة اعرابي فقير حقير ، يعزف على ربابته ، ويقولك ويقول نفسه بخدمة الناس وبغنيات له لا تغني ولا تسمن من جوع ؟ قليلاً من التفكير ، يا ابنتي . ان نصراً قد تركك ، وتزوج سواك جارية رومية شقراء بضّة . فيا للخائن الذي ! اطرديه من قلبك ، وأقفل دونه كل باب من ابواب الذكرى . وكوني راضية شاكرة بان يسر الله لك في مولانا الامير رجلاً يكره الحرام ويبغيك زوجة له تشاركينه في كل ما تشارك فيه الزوجات المحبوبات بعلمن .

لشد ما انتفضت سعاد حين طرق سمعها ذكر الزوجات وبعل واحد . ولشد ما اشتت ان تنفجر صارخة بشيء تقوله لهذه الام التاجرة فتخرسها اخراًساً . لكن اوشك غيظ سعاد ان يخنقها . وشلتها هذه الحيرة التي تستبد بالانسان اذا واجه موقفاً مجهول فيه الحقيقة . بل لم تنج من شعور بمخالب الغيرة تنشب في قلبها . كانت عاطفتها تنكر ان يكون نصر طلقها وتزوج سواها بتوغيب او تهيب . لكن من يدري ما يكون تأثير المال وجارية رومية

شقراء بضة ؟ أو اه ! كيف السبيل الى معرفة اليقين الذي لا شك فيه ؟

ولبثت صامئة مستغرقة في صمتها ...

قال ابن ام الحكم : اظنك اقتنعت ، يا سعاد .
وأردفت امها تقول : لا تضعي هذه الفرصة ، يا ابنتي . ان مولانا الوالي عازم على الانصراف بعد يوم او يومين . وقد احب ان يبيت في هذا الامر قبل ذهابه . فأعطني له رضاك ، ولتكن الليلة عرساً لم تشهد مثله البوادي .

قالت سعاد وجبينها يتبلل بالعرق : وبجي ! إن انفاسي لتضيق في هذا المكان . دعوني اخرج . وفكرت في ابيها الشيخ الضعيف . انها تستطيع معه ان تبكي ، على الاقل ، فيشاطرها البكاء . وهنا ، على ذكر ابيها ، فطنت الى شيء ظنته لسذاجتها (سذاجة الغريق الذي يتمسك بالقشة) وسيلة تفرج عنها في هذا المأزق الحائق . تذكرت ان امها - يوم لقيتا ابن ام الحكم معاً لأول مرة - قد زعمت نفسها ارملة وبنتها يتيمة . فاذا هي قالت الآن للوالي انها تريد الذهاب الى ابيها ، اتضح له كذب امها ، فيغضب على هذه العجوز لتزويرها عليه .

ورفعت سعاد الى ابن ام الحكم عينين متعبتين ضارعتين ، وقالت له :

- اريد الذهاب الى ابي ، يا سيدي الامير . ان لي اباً شيخاً ، وربما جهلت ذلك .

فابتسم ابن ام الحكم . يا للغرابة !.. لم يفاجئه الخبر . وقال لعساد وهو يقتل باصابعه اطراف شعرات من لحية :

- ولم تذهبين الى ابيك؟ فهل يمكن ان يعارض في زواجك بعد اذ يعلم اني انا طالبك وان نصراً طلقك وتزوج سواك وغادر المكان بما قبض من مال؟ لكن اذا كنت ترغبين في حضور ابيك بعثت في طلبه .

وصفق بيديه السبنتين الرخصتي اللحم ، فأصدر امرأ الى احد فرسانه ان يمضي الى حي بني عذرة فيحضر الشيخ ابا سعاد .
ووقفت المرأة الصبية كالظبية الواقعة في شرك القناص تنظر بعينين كبيرتين ، مفتوحتين على الاشياء ولا تريان شيئاً ، كأنهما من زجاج . لقد انقطعت بها الاسباب فلن تستطيع افلاتاً من هذا الموضع الذي يضيق عليها انفاسها ، ولن تستطيع ان تهرب في هذه الصحراء الفسيحة ريثما تستيقن من امر نصر .

وفجأة تذكرت انها ، قبل ان تتزوج نصراً ، كانت على وشك ان تتزوج فتى غنياً اقبل يوماً على الحي بخطبها . لقد عمدت يومئذ الى الجنون ووعدت نصراً بان تجن كلها خطبها خاطب . فلم لا تجن الآن ؟

وفيما الوالي وامها يتوقعان منها كلمة الرضى ، ارسلت صبيحة فاحبة طويلة ، وراحت تقلب عينيها في رأسها وتشد ثيابها لتمزيقها والزبد يوغى على زاويتي شفتيها .

فنهض الوالي يهدئها ، وتراحت عليها امها ، لكن دفعتهما عنها دفعاً عنيفاً وحدجتهما بعينين تبرقان ببريق وحشي .

قال الوالي وهو يلث لاذحام انفاسه : هل 'جنت' ؟
اجابته امها : لا عليك ، يا مولاي . إني اعرف هذه الحبيثة ، فهي تصطنع الجنون اصطناعاً ...

واستولت النهكة على سعاد ، فانهارت انهياراً على ارض الخيمة لا تتحرك إلا بمقدار ما تهزها انفاسها الخافتة .

وجاء ابوها قلقاً مضطرباً ، لا يعلم لم ارسل الامير فارساً من فرسانه يطلبه بهذه السرعة . فلما ادخل خيمة ابن ام الحكم وابصر ابنته مطروحة ارضاً ، رمى زوجته بنظرٍ شزر ، وهمت شفتاه بان تغلظا لها في الكلام ، لكنه فطن الى وجود الامير فارتبك وارقت لحية . وأراد ان يبادر بالتحية فغص بها حلقه ، واسترخت حنكه ، ونحدت دمعان كبيرتان من عينيه العشاوين على خديه الداويين .

وتفجعت سعاد لمجيئه فنهضت تعانقه وتشق بالبكاء .
وضحك ابن ام الحكم لهذا المشهد . ضحك مستخفاً عقل هذه الصبية البدوية التي تعاند في ما لا يوجب العناد . وابصرته ام سعاد ضاحكاً فقالت له : شيء يثير الضحك حقاً ، يا مولاي . لكن المزاح سينتهي فيعقبه الجد .

وصاحت العجوز بشيخها : أراك تفسد هذه البنية ، يا شبة النحس . لقد طلقها الصعلوك ابن اخيك بمال دفعته له من كرم مولانا الوالي وتزوج بجارية رومية من جوارى مولانا ، ولقد عفا عنه الامير . فما خرج من السجن حتى غاب في الآفاق بين سمع الارض وبصرها . ويريد الامير ان يتزوج ابنتنا بعد ان تركها ابن اخيك ، فما تقول ؟

اجاب الشيخ وقد ضعف امام عجوزه ، ولان لقوة الاغراء ، ودانى عيني ابن ام الحكم تحذجانه بما لا يحمل على الطمأنينة :-
- وهل لمثلي ان يعارض مشيئة الامير ويتردد في شرف

مصاعره ؟

فكفت سعاد عن معانقته . ابتعدت عنه وانحبست دموعها فجأة ، وعادت تصبح صبيحتها الناحية الطويلة .
إلا ان اذنأ لم تسمعها غير اذن ابيها الشيخ الضعيف الحائر .
وأبى الوالي وام سعاد ان يضيعاً وقتاً . فعقد ابن ام الحكم
لنفسه على سعاد في تلك الساعة . قال ها كمن يصدر امرأً عالياً من
اوامر الدولة :

— زوّجتك نفسي ، يا بنيتة !

فصاحت سعاد صبيحتها الناحية الطويلة التي انقلبت الى فهمة متحدية .
وعلى الاثر ، نودي في ذلك الحى الهادي المنقطع من احياء
بني عذرة ان ابن ام الحكم ، والى الخليفة معاوية بن ابي سفيان ،
قد تزوج سعاداً من نساء الحى بعد ان طلقها زوجها نصر .
وسبقام الليلة عرس عظيم في خيام الامير تنحرف فيه الذبائح وتوقد
النيران وتوزع العطايا على الناس .

وحقاً كانت العرس تلك الليلة كما نودي عليه عرساً للجميع
حتى الصباح . أكلوا فيه ما شاؤوا على ضوء نيران ملأت
الفضاء ، واخذوا فيه الهدايا الثمينة . ولسم حسدت ام سعاد من
ام واباها من اب . بل لكم حسدت سعاداً من فتاة !
اجل ، كان العرس للجميع الا لسعاد . كانت في مأتم ، تتذكر
العرس الآخر ، عرسها الحقيقي ، ليلة زفت الى نصر وعزف على
ربابته عزفاً طربت له الصحراء !

مكثت سعاد اثناء العرس قابعة في خيمة الوالي الخاصة ،
في تلك الحيمة التي شهدت حوادث الليلة الفاتنة بين ابن ام الحكم

ونصر وشقراء . ولقد وضعت سعاد هناك وضعاً وربطت بالحبال
لأنها اصررت على جنونها ، وخشي الوالي وامها ان تهرب .
وكانت الفتاة الاعرابية ، اذا استغرقت حبال هذا العرس ،
في تذكر العرس الآخر ، لا تملك ان تفكر في الامر الذي ما
برح يضغط عليها ضغط كابوس ثقيل منذ ان حدثتها به امها
والوالي . فهل يمكن ان يكون نصر طلقها حقاً ، راضياً بما
دفع اليه ، بالغاً ما بلغ ؟ وهل يمكن ان يكون عدل عنها الى
ذراعي الرومية البضة الشقراء ؟ ان عاطفتها لتأبى ان تصدق عن
نصر مثل هذه الدناءة وهذا النكث بالعهد . لكنها مع ذلك لا
تستطيع ان تقطع في الامر قطعاً . فهي في شك ربما كان واهن
الاساس ، الا انه يعذبها بأشد مما يعذبها هذا المصير البغيض
الذي ساقته اليه قسراً مآرب لا ترحم . وبعد ، فكيف تستقبل
هذا المصير البغيض ؟ أواه لو كانت تعلم علم اليقين حقيقة السلوك
الذي سلكه نصر !

صحّ عزمها آخر الامر على ان تعمل بوحى عاطفتها وبقين
قلبها . فنصر لم يطلقها ، ولم يتزوج سواها جارية رومية ، او غير
رومية ، شقراء او غير شقراء ، وكفى ! وهذا الزوج الجديد ،
الامير ابن ام الحكم ، لن يصادف منها الا امرأة بجنونة مصرة
على جنونها ، لا سبيل له الى الدنو منها الا وهي جثة هامدة .
ونبض قلبها نبضاً مسعراً محموماً ، وبقي ينبض .

الفصل التاسع

في هذا الآن نفسه ، كان في موضع آخر من خيام الوالي قلبٌ ، كقلب سعاد ، ينبض هو الآخر نبضاً مسعراً محمواً . وكان القلبين في نبضهما يتناديان ويتجاوبان ويتبادلان ، في خفاء ، قوة وصبراً وأملاً وعتاباً .

ذلك ان نصرأ ، بعد تلك السهرة التي قضاها في صحبة الوالي وشقراء ، أقيم هو ايضاً في الخيم موثقاً بالحبال تأتيه اصوات العرس وكأنها خناجر حادة الشفار تغوص في اعماقه . سوى ان الحبال التي ربط بها كانت اغلظ ، وعقدها اشد . وكانت الحيمة ، التي وضع فيها ساعات متواكمة يبدو ان لا نهاية لها ، خيمة زرية عارية الارض مظلمة ، لا يُحمل اليه فيها إلا ما يمسك رmqه من فضلة طعام تدسه له في فمه يد غريبة لأن يديه مقيدتان .

لكن لعل هذا كله لم يكن بمفرده ليفرغ الهم والكدر في قلب نصر . فلقد الف شظف العيش وتعود الحرمان . ولقد فعل ما لا يُعدّ هذا الحبس بجانبه إلا حظاً طيباً . وتلك السياط التي نهشت ظهره ، وهذه الحبال التي تقبّده الآن ، ليست سوى بلاء يسير بالقياس الى باقي البلاء .

فهل يمكن ان يكون هذا الوالي الوغد صدق في ما قال ؟ هل يمكن ان تكون سعاد فرحت ولو ذرة من فرح ، في سريرة

نفسها باعتقاله وضربه بالسياط ؟ ترى ، هل علمت بضربه بالسياط ؟
 وهل يمكن ان تكون رضية حقاً بان تقطع ما بينهما لتتزوج
 ابن ام الحكم ؟ وعلام تتزوجه ؟ ألتنعم بجاه او بمال ؟ انزل على
 ارادة أمّ دنيئة لا تعنيها سعادة اعز الناس عليها طمعاً في مكسب ؟
 أواه ! لو كان يستطيع ان يقتنع بان سعاداً اذا رضية - ان
 كانت قد رضية - بان تفعل ذلك في سبيل الحب ؟ فالحب مهما
 بلغ من جرحه لا يحقد اذا غلبه حب آخر . فاما اذا غلبته التجارة
 فانه ليعجز عن المغفرة . ولا يلفظ حقاً الحب ، بل يزيد في
 مرارته ، ان يتحول موضوع شفقة المحبوب ؟ وماذا تحال سعاد ؟
 هل تحال انها ترضيه اذا اشترطت بان يوهب له مال لقاء تركها
 اياه ؟ يا للحقارة !

تلك هي الخواطر التي جعلت تساور نفس نصر في اسئلة ملحة
 محرقة كأنها تحفر في نفسه باطراف قضبان حديدية محماة بالنار .
 غير انه كان لا يلبث ، في لمحات ، ان يستعيد شيئاً من طمأنينته
 حين يعرض له ان هذا كله يحتمل ان لا يكون سوى مؤامرة
 من ام سعد الافعى الحبيثة وهذا الوالي الوغد . فهذه الكربة ،
 اذاً ، لا بد ان تنجلي . وهذا السجن الذي زوي فيه عن الشمس
 والهواء لا بد ان يزول ... هو الحب والثقة بالحب كانا يشبتان فيه
 عزمه كلما طفى عليه الوهن .

لكن ترى ما هذه الاصوات الليلة ، اصوات العرس ؟ يقيناً
 ان اكره ما يكرهه وأخوف مما يخافه قد وقع .

ومن ثم يعود فينشب الصراع الجبار في نفسه بين يأسه الذي
 استفحل عليه جداً هذه المرة ، ورجائه ، رجاء الحب ، الذي ابي

الا ان يصمد متحدياً معانداً كل مظهر من المظاهر الصاعقة الساحقة .
وفجأة دخل عليه داخل في وحشة الحيمة ... كان هو الرجل
الذي يحمل اليه فضلة الطعام التي يمسك بها رمقه . وكان هو
الحارس نفسه الذي واجه ام سعاد يوم بكرت الى الامير في
ذلك الصباح غب مصرع فانك ، فلم يسهل لها الدخول الا بعد
ان وعده بالمكافأة ، على ان المكافأة بقيت وعداً فارغاً ، فانطوت
نفسه على مرارة .

قال الحارس لنصر : جئتك هذه المرة بشواء ، هيا كل .
وكانت عادة نصر اذا خاطبه الحارس ان يلتزم الصمت
المطبق . غير انه وجد الآن دافعاً قاهراً على الكلام . فاجاب
بصوت مسحوق : اني اسمع يا اخي اصوات عرس في مخيمكم .
- هو ذاك ! لقد تزوج الوالي . وما ادري ما عدد هذه
المرة التي يتزوج فيها ! ... كل ، ما لك لا تأكل .

وانحنى فدرس له في فمه قطعة من الشواء . فمضغها نصر في
غير شهوة ، ثم تفلها قائلاً : شدم ما هي مرة ! وضمت هنيهة ، ثم سأل :
- ومن هذه التي تزوجها الوالي ؟

اجابه الحارس :

- لقد شبع من بنات المقاصير والحمامات في دمشق ، فتزوج ،
هذه المرة ، امرأة بدوية اسمها سعاد من نساء هذا الحي القريب
من احياء بني عذره ، واحسب انك انت من هذا الحي !
قال نصر ، وفي صوته اوجاع كأن خنجراً طعنه في صدره :
ويك ! انها امرأتي !

قال الحارس وهو بعض على شفتيه : لقد قدّرنا ذلك ، وعلمنا

ان السباط التي نلتها لم تكن لتنفيرك طرائد الوالي ... يا هذا ،
ان لك امرأة عم اعرابية خبيثة ، اخت ابليس ، مالت بها السن ،
احسبها هي اصل الشر . اما زوجتك فما اظنها راضية ان تستعيب
عك بالوالي . هي مثلك تأبى ان تستبدل بك . فرمه نصر في
تعجب وقال له :

- يظهر . انك على علم . فكيف عرفت هذا كله ؟
- فهل تظن ، اذن ، اننا لم نعلم بسهرتك ليلة امس في خيمة
الوالي ، وبما دار في تلك السهرة ؟
- لست عن هذا اسالك ، يا اخي .

وكان نصر يود فوراً ان ينتقل الى سؤال الحارس كيف
جاز للوالي ان يعقد لنفسه على امرأة معقود عليها لرجل آخر .
لكنه خشي ان يسمع منه ان سعاداً قد طلقته . فهو ان سمع
ذلك انهار انهياراً .

اجابه الحارس : انا ادري عن اي شيء تسأل ، فاسمع . لا شك
انك تعرف فاتكاً وانت من حيّه - فاتكاً الذي قتله على باب
الحيم سهم راعٍ من رعائكم . لقد سبق له ان حدثنا عن الاعرابية
امرأة عمك ، وعن زوجتك الصبية الحسناء ، وعمما يظنه من ان
الوالي يطمع فيها . وكنا نحن في حديث هذا الوالي الذي يتحلب
ريقه للنساء فيتأخر في اخراج ارزاقنا اليها . ولقد اقبلت العجوز
امرأة عمك مرة ، في سحر الليلة التي قتل فيها فاتك ، تريد ان
تقابل الوالي ، فيسرت لها المقابلة - وانا الحارس ليلتئذ - بعد ان
وعدتني بالمكافأة . ثم انصرفت فعادت تصحبها فتاة فارعة رائعة
الجمال . ثم لم يلبث ان أعلن قيام هذا العرس الليلة . وانت

تقول ان الفتاة هي زوجتك . ولقد سمعت في النهار من خيمة الوالي صيحة ناحبة طويلة ، لا اظنها صدرت الا عن زوجتك ساعة صدر الامر بزفافها الى الوالي . ثم علامَ استمر سجنك انت ؟ هل استمر الا لانك ابيت ان تترك زوجتك للوالي وتستعيض عنها باخرى من جواريه ؟ اسمع ، يا اخي . اننا استروحننا روائح مكيدة خبيثة لاول لحظة . وها هي المكيدة تنجلي . والاعرابية العجوز كذبت عليّ حين وعدتني بالمكافأة . وهذا الوالي لا ينفك يبدّر ما هو حقّنا من مال في ولائم زواجه وملاذّته . فتق اني نصير لك في هذه المحنة . سأقطع عنك الحبال اذا شئت ، وستشاء . فتضي حتى تأتي دمشق ، فترفع دعواك الى الخليفة معاوية بن ابي سفيان . واني لأرجو لك فوزاً . فاذا فزت فاذكر اخاك عامراً بالخير .

هنا لم يبق نصر يستطيع سكوتاً عن آخطر شيء . يجب ان يتأكد منه . قال للحارس :

— شكراً لك على مروءتك ، يا اخي عامر . لكن كيف نسمع دعواي اذا كانت سعاد قد طلقني .

— يتحدثون بان امرأتك قد جئت ، فلا اصدق انها طلقتك . وهب انها طلقتك فلا معنى لهذا الطلاق وقد حصل باغراء او بتهديد . فلنسرع . يجب ان لا نفرط بالوقت .

واستلّ الحارس من وسطه سكيناً راح يقطع بها الحبال عن نصر .

ونصر يتنسم في سره لهذه الطمأنينة التي هبطت على قلبه حين سمع كلام الحارس .

ثم فكر في ملتمس لم يكن له بد من التماسه . فكر طويلاً ،
ثم قال بعد جهد :

— ان الطريق الى دمشق بعيدة . فهل لديك ، يا اخي عامر ، بعض
الزاد تزودني به ؟

— لدي دراهم يسيرة اعطيك اياها . ودسّ الحارس يده في
جيبه . فأطلع ما فيه وسلمه الى نصر ، واستأنف كلامه : لو كان
معني مال أوفر لما امسكته عنك . لكن هبهات ، وهذا
الوالي ... بقي هذا الشواء ، لا تنس ان تأخذه . وامض الساعة ،
امض ، فارفع الدعوى على ابن ام الحكم لعلك تسترد زوجتك .
اما نحن فلعلنا نظفر ، بعد هذه الفضيحة ، بعزله عنا . ولا تنس
ان تأخذ هذه الحبال ايضاً لئلا توجد هنا فيرى انها مقطوعة
بسكين .

قال نصر وقد لف الحبال وحمل الشواء : لو اعطيني هذه
السكين ايضاً لزدت لك شكراً . لا بد لي من شيء من سلاح .
وتذكر ، نادماً ، انه دفن قوسه ونشابه في موضع لا وصول له
اليه الساعة ، فدفع اليه عامر بسكينه . فطوقه نصر باحدى ذراعيه
معانقاً ، وقال له :

— كنت اظنكم جميعاً ، معشر الجنود ، عبيداً لابن ام الحكم ،
انتم ضماثركم حتى ماتت على يديه . غير اني علمت اليوم انكم
مظلومون . وان الدولة تضرب المظلومين بالمظلومين . وأنا ، يا اخي ،
لا أياأس من النخوة والخيبر في المظلومين ...

لكن قل لي ، يا عامر : كيف تصنع اذا طلبني الوالي غداً
فوجد اني تمكنت من الفرار ؟ أفلا تقع عليك الشبهة ؟

اجابه الحارس مرتباً على كتفيه : امض ، امض ، لا عليك .
 في مثل هذه الليلة التي ذهلت فيها الجميع ابتهاجاً بعرس الوائي ،
 نستطيع ان نعتذر عن هربك بألف عذر .

فاندفع نصر من الحيمة التي كانت سجنه ، مارقاً مروق السهم .
 اندفع شبحاً سرّياً غامضاً ، فاتحد بأشباح الليل وتواري . وكانت
 وهو يهبّ في سعيه هبوب الريح ، لا يتألك ان يلتفت وراءه
 فيشاهد ضوء النيران في مخيم الامير ، وتأتبه اصوات العرس - هذا
 العرس الذي بات صداه مناحة في ضلوعه .

الفصل العاشر

غلب سعاداً الاعياء في هذا الموضع الذي وضعت فيه من خيمة الوائي الخاصة ، فانتبهت بأن اغمضت اجفانها مهدودة القوى . رقدت في الحبال التي ربطت بها مخافة ان تهرب . وكان رقادها متخماً بالرؤى المتشابكة التي لا اول لها ولا آخر .

على انها قبيل الصباح عرضت لها فجأة ، في غمار هذه اللوحة المشوشة من الأحلام ، رؤيا واضحة منفردة . ابصرت نفسها في فلاة في ليل مظلم ، ونصر الى جانبها نحسه يتنفس في وجهها . فطوقته بذراعيها واسبلت اجفانها الطويلة الاهداب تنتظر قبلته وتتوقع ان يبادرها بكلمة فتسأله معاتبه : هل طلقها حقاً ، وكيف يجد نفسه مع هذه الرومية البضة الشقراء التي رضي بها زوجة جديدة ؟ فيقسم عندئذ مغرورق العينين بالدموع ان ذلك دس ملفق وبهتان مصنوع ... الا ان سعاداً لم تشعر ، على حرارة انتظارها ، بشفتي نصر مستا شفتيها . بلى ، شعرت بذراعيها تفرغان ، ففتحت عينيها فلم تر نصراً . فلمسته بذراعيها فست بها شخصاً ادركت فوراً انه غيره . فارتدت مذعورة . واذا بذلك الشخص يلوح لها في ظلام الليل بعقد من جوهر مضيء ، ويدنو مصطنعاً اللطف ليجعل العقد في عنقها . فصدته عنها . ومسّ الجوهر اصابعها فاذا هو جمر محرق ، لا جوهر ! وشاءت ان تصيح فلم تستطع الى

اخراج صونها اللاصق بسقف حلقها سيلاً . ونضح جبينها عرقاً .
واستيقظت يابسة اللسان تشعر في حلقها بطعم رديء .

في هذه اللحظة ، كانت الامير ابن ام الحكم يعود الى خيمته
بعد ان شارك الجميع في عرسه حتى هم الصباح بالزوغ ، مجتهداً ان
يدلّ على ما عنده من روح شعبية ! وقد ابى ان يسقي الخمر
ليثبت مدى تعلقه بالدين ! فما عسى ان يريد الناس منه اكثر من
ذلك ؟

وكان ابن ام الحكم وهو يشي - بل يتدحرج - الى خيمته بجسمه
المتقل أكلاً ، لا يشتهي شيئاً كأنه يخلو الى هذه الزوجة الجديدة
التي جئت ، على ان جنونها - كما قالت امها - طاريء ، وقتي
سرعان ما يزول .

قال لها وقد توسم الرعب في حدقتي عينيها حين ابصرته
يشي نحوها بوجهه السمين كأنه متورّم ، وبطنه المسترخي كأنه
ضرف حُمِل فوق ما يسع من ماء :

- لم يكن بودّي ان تكون عليك هذه الحبال ، يا سعاد .
لكنك عاندت عناداً ليس له موجب . واطنك قد ثبتت الى
رشدك ، فما اجدرني بتقطيع هذه الحبال عنك . ولقد قصدت لك
الحرير والذهب لا الحبال .

فلم تقل شيئاً . وانصرف هو الى اتمام وليمة الليلة بما بقي
ناقصاً . فهذا الطعام الذي يكظّ جوفه لا بد له من نفع .
واخرج من مخبأ في الحيمة كوزاً جرع منه سراً ما تحاشى ان
يجرعه جهراً . ثم مدّ به الى سعاد فحوّلت عنه وجهها مشمّزة .
- لا تشربي ان كنت لا تشائين . انا اشرب عنك ، يا صغيرتي .

وضحك كمن اعجبته نكتة بارعة فريدة . وافرغ الكوز وحذفه الى ناحية . ثم مال على سعاد ، وسمع انفاسها تسري مزدحمة ، واختلج لطيب رائحتها . فشاعت في كيانه رغبة تدعوه الى تقبيلها .

وادركت غايته فقالت ، وهي تكبت امتعاضها تحت انفاسه المثقلة برائحة الخمر ودمم الطعام :

— أترضى ، ايها الامير ، ان يقال انك قبلتني وانا مقيدة ؟
وقهقهت في وجهه قهقهة وريحة ما كان يتصور ان تصدر عن مثل هذه البنية . وراح يقطع عنها الحبال ويبيده ارتعاشة عصبية .
فما احست بنفسها حرة طليقة حتى وثبتت على قدميها فابتعدت عنه نافرة نفرة الغزال في خفة ورشاقة ، مستمرة في تلك القهقهة الوقحة التي استفزته . فتبعها فعثر بكوز الخمر الفارغ ، واوشك ان ينهار كعمود ضخيم . فلجأت هي في قهقهتها . وتبخرت من رأسه النشوة ، فأطرق مذهولاً صابراً عليها حتى تفرغ من هذه النوبة الجنونية من الضحك الصاعق ، ثم قال لها وبطنه يرتجّ لشدة انفعاله :

— سعاد ! انك امرأتى . وانا وال من ولاية الدولة ، فهل علمت ذلك ؟

وافرغ في نبوة صوته رنة وعيد . وقلب بيده السكين التي قطع بها حبالها . لكن ذلك لم 'يجد شيئاً سوى ان احدث لها انفجار نوبة مستأنفة من القهقهة رفّت لديها اجفانه رفيف من طُرقت عيناه بلطم قاس .

ورجع الى الملاينة والملاطفة . قال لها وكأنه يستأنف الكلام

من حيث انقطع :

— ثم هل عرفت ، يا صغيرتي ، ما عندي لك في خزانتي من عقود
جواهر تليق بهذا العنق الغزالي العاجي ؟

فوجئت سعاد بغتة وتذكرت الرؤيا . وظن ابن ام الحكم
وجومها انتظاراً ، فأسرع الى صندوق في الخيمة مرصع بلآليء
البحرين ، اطلع منه عقد جواهر مضيء .

فصرخت : ابعد عني هذا الجمر الواهج المحرق .
قال وهو يتعجب هذه التصورات التي تمر برأسها :
— ان كنت لا تحبين الجواهر فخذني الذهب .

وعاد فجاء بين يديه بحفنة من دنانير ذهبية : دماء استقطرت
من شرايين الرعية ، وجدت إلا ما تبعث به من بريق . فمدت
سعاد يدها فتناولت ديناراً وضعته بين اسنانها وغضت عليه . ثم
تفلته أرضاً ، وبصقت في اثره كأنما تنظف فيها من طعم كريبه .
وقالت :

— ايؤكل هذا ؟ فأية حاجة لي فيه ؟

واستأنفت فقهتها المربية وابن ام الحكم يعجب من ابن تغرف
هذا الضحك الرنان المتحدي كله ، ويقول في سره :
— قد تكون حقاً مجنونة .

وهنا طرق سمعه صوت خطى تقترب من الخيمة . فأمال عنقه
وأعار اذنه . فارتفع ، بعد لحظة ، صوت الحارس عامر يقول
من على باب الخيمة :

— مولاي ! مولاي ! هذا البدوي الذي كان عندنا معتقلاً قد
اختفى دون ان يترك اثرأ .

صاح ابن ام الحكم وقد ازدادت رقبته غلظاً في الحال :

— وبحكم ! وكيف اختفى ؟ وابن ؟

— لا ادري ، يا مولاي . كان في موضعه ليلة امس حين حملت

اليه العشاء . واطن ان عرسكم المبارك شغلنا جميعاً ، فانهمكنا في طبيانته ومباهجه حتى استطاع صاحب هذا البدوي ، من اهل هذا الحى ، ان يندس الى خيمته فبك حباله فيهرب .

وسعاد تصفي خلال قهقهتها . فتعلم هذه المرة ، بيقين لا تداخله

ذرة من شك ، ان نصراً كان لا يزال سجين الوالى ، فهو بالتالى لم يطلقها ولم يبعها بمال ولم يلتمس عفواً ليهرب . واستمرت مفرقة في قهقهتها ، إلا انها اصبحت قهقهة تفضح برغمها ما تفجر في قلبها

من ينبوع غبطة . فلوح ابن ام الحكم في وجهها بسكينة التي لمعت شفرتها لمعاناً تكسر على البريق المتحدى من عينيها . وهروا الى الوالى الضخم مغبر اللون الى خارج الخيمة — وقد خف فجأة ثقل

جسمه — ليرى كيف استطاع هذا اللعين نصر ان يفلت . وفكرت سعاد في ان تغادر الخيمة هي ايضاً فتفر لاحقة بنصر . غير انها

شاهدت رجال ابن ام الحكم يضطربون في الخيم اضطراباً لا سبيل معه الى الخروج دون ان يلحظها لاحظ فيمسك بها . فمكثت في مكانها وقد انفتحت لها كوة امل تشرف منها على ساحة الخلاص .

اصبحت واثقة بان نصراً لم يفر إلا ليعود فينقذها .

وتصورته ضارباً في عرض البوادي بشملته وعباءته وجسمه

الرشيق الحركات . ورافقته بعين الخيال يسلك المخارم الخفية خشية ان يقع في قبضة الوالى مرة اخرى . على انها لم تستطع ان

تصور ابن يقصد واي عمل ينويه .

... لفظ ابن ام الحكم على حاشيته وخدمه ، ساعة خرج اليهم من الحُبْبة ، كلاماً شديداً الغلظة ، ولحيته ترتقص ارتقاصاً مع سفلى فكبه التي بدت كأنها توشك ان تنخلع . فقد اصيب حقاً بجرح بليغ في صميم كبريائه التي عُرس في طبعه وزكاها منصب الولاية . فلم يجد الى التشقي سبيلاً سوى ان يقول لخدمه وحاشيته ما ارتجله عليه الغضب والقهر . فكيف يبدي رغبته في بدوية زرية يلقها هذا التمليق فتمتنع عليه مجنونة او متذرعة بالجنون ؟ ثم كيف يلقي القبض على بدوي زري ، فيهرب برغم ما شده به من حبال وبرغم هؤلاء الرجال الذين يعج بهم مخيمه .

وقال له احد الفرسان اذ هو يرغي ويزبد : أأمر ، يا مولاي ، بان نطارده فنأنيك به حياً او ميتاً ؟

فصاح به ابن ام الحكم محقق الوجه وعروق الرقبة :

— ألا تحرس ، ويحك ، يا ابن الفاعلة ؟ غفلتم عنه حتى هرب ، وجئتم بعد ساعات تتطوعون لمطاردته ، كأن هذه الصحراء رقعة كف .

فهس الحارس عامر في اذن رفيق له : والله انها شتية في موضعها استحقها هذا الفارس ، لكن من فم غير فم هذا الوالي . ترى متى يؤخر ولائم زواجه ويخرج لنا ارزاقنا ؟

اجابه رفيقه بهس غير مسموع ايضاً : ولم لا نقولها له جهراً ؟ وفيما يتداول الجنديان بهذا الهمس غير المسموع ، ولا يفهمان بأن الحق انما يحتاج الى من يجرؤ على المناذاة به ، ارتفع صوت اجش وقع وقاحة الباطل ، صوت العجوز أم سعاد تقول :

— وما عسى ان يفعل هذا الكلب نصر ؟ فليض حيث شاء ؟

أفلم تصبح سعاد زوجة مولانا ؟

فانتهرها ابن ام الحكم وعيناه تقدحان الشرر . وأمرها بان تأخذ شيخها فتغرب بوجهه ووجهها من حضرته .

فاسترخت حينكا العجوز وصدعت بالامر بذلك الشعور العبوديّ الذليل الذي ما يلبث ان يتحول الى شبه غريزة تجعل من صاحبها آلة كالآلة تتحرك بزرّ .

والحق ان ابن ام الحكم لم يكن غاضباً ذلك الغضب كله ، مقهوراً ذلك القهر كله ، للجرح الذي أصابه في صميم كبريائه وحسب . بل انما خشي العاقبة الوخيمة . فهو ادرى الناس بانه قد اصطنع لنفسه اعداء كثيراً بمسلكه في الولاية . ولا بد ان يلاقي نصر بعض هؤلاء الاعداء فيحملوه على رفع الدعوى الى الخليفة معاوية . والدعوى صريحة . فالرجل لم يطلق امرأته ، وقد غصبة اياها غصباً . ومعاوية الداهية اذا رأى فرصة يبيض بها صحيفته لدى الرعية ، على حساب احد الولاة ، اسرع الى اغتنامها .

فكيف يفعل ؟ كيف يفعل ابن ام الحكم ؟

وهذأت ثورته . وراح ينقل فيما حوله نظراً ذاهلاً . رأى آثار العرس التي ما تنفك ماثلة شاهدة . فهنا نار كانت موقدة للزينة . وكان لسان لهيبها يندلع ليلة أمس احمر لعوباً في الهواء . وهنا نار كانت موقدة تحت قدر عظيمة وسقت باللحم . وهنا علّقت احدى الذبائح المكتنزة . فماذا بقي من هذا كله ؟ رماذٍ وسواد ! فهل يكون هذا آخر عرس قبل الفضيحة القاضية ؟ وهل يتسنى له بعد اليوم ان يتزوج وهو والي ، فيختار من شاء من الصبايا الناضرات ويدفع المهور الغالية ، وينفق عن سعة وفيض مما يحتلب من هذا

الضرع السخي ، ضرع الولاية برغم انها ولاية عجفاء على البادية .
 إن في هذا كله مجالاً للتفكير . وأحسن ابن أم الحكم بأن
 هذه الدنيا ، دنيا النعم ، التي شادها مع ولايته توشك ان تنهار
 به . واي شيء يكون ابن أم الحكم وامثاله اذا عزلوا عن
 الولايات وجردوا من الوظائف ؟

فيجب ان يحال بين نصر والوصول الى معاوية اذا امكن
 الامر . لكن فوق ذلك يجب ... وهنا امسك ابن أم الحكم ،
 فلم يشأ ان يعلن حتى لنفسه التدبير الذي عزم عليه .
 ثم امر ، ولا تزال في صوته نبرة الغيظ ، بان يتأهب الجميع
 للرحيل ، فقد انتهى الصيد .

وقال عامر حارس المخيم الذي اطلق نصراً :
 — طبعاً انتهى الصيد ، تزوج الامير ... باحدى الطرائد !

الفصل الحادي عشر

بعد ان انطلق نصر من معتقله ، لم تكد تنقطع عنه اصوات العرس وتغيب عنه النيران حتى ازدادت وحشته في هذا الليل الذي يلفه ، وضغط على نفسه تشاؤم ثقيل . فأين هو من دمشق التي يقصدها ؟ وما عدته ليطوي هذه الشقة البعيدة المدى ؟ سكين وشيء من شواء ... ثم كيف السبيل الى المثل بين يدي الخليفة معاوية بن ابي سفيان بعد اذ يصل الى دمشق ؟ وهل يسكت ابن ام الحكم عن فراره فلا يرسل في طلبه فرسانه ؟

وظفت ترون في اذنه الاصداء وتتمثل امام عينيه الاشباح ، ومعظمها اصداء خيل تضرب الارض بحوافرها واشباح فرسان يترنن به . فيضع يده على مقبض هذه السكين التي منحه اياها الخليفة عامر ، عازماً على غمها في اول مهاجم يتصدى له . وربما ان بعض الشعاب اصوات الذئاب تعوي من جوع فطفت في اذنيه على اصداء حوافر الخيل التي توهمها تعدو في اثره ، وقال لنفسه كمن استأنس بهذه الاصوات الوحشية : لا ، لست اخشاك ، ايها الذئاب ، بمقدار ما اخشى ابن ام الحكم وزبائنه . فأنت لا تقتلين إلا لعة واحدة هي الجوع !

وذلك كله حثه على الانطلاق السريع حتى اغتسل جسمه بما دفق من عرق ، وحتى بوقت له تبشير الصبح . فرأى على بعض

البعد بقعة اشبه بالواحة في هذا البسيط الجديب من رمل . ورأى اشجار نخيل ، وخياماً منصوبة . فخيل اليه ان تعبهُ وظمأهُ قد مثلاً له سراباً خادعاً . لكن ابن الوقت الآن من مبعاد السراب ، وقد علم نصر ان السراب يكون ظهراً في معبران القيط حين يلهث الرمل بشبه هب يتوهج شعاعاً رقيقاً في الهواء .

واذن فليعرج على هذه الواحة يصيب فيها قسطاً من ماء وطعام وهنية من راحة ، ثم يستأنف المسير . غير انه ما كاد يعزم حتى استفاق فيه الحذر الذي يصبح طبيعة ثانية في كل هارب يعرف انه مطلوب . وتغنى لو يصادف انساناً يستنبىء منه نبأ هذا المكان ومن فيه ، فلا يكون انصرافه اليه انصراف الطريدة الى فخ . لكن ليس في مرمى نظره حوله بشرٌ يستطيع ان يتلقى منه مثل هذا النبأ . فلا بد اذن من شيء من المغامرة مع الحذر . وسعى نصر شطر الواحة مفتوح المنخرين يتشمم الهواء كأنما يستطيع ان ينشق فيه رائحة الخطر ان كان ثمة من خطر ...

الى ان اصبح على كشب من الموضع . فظهر له رجل ما ان لمح نصراً حتى شخص اليه يتفرس فيه تفرس مستريب . ثم تقدم اليه وقد تمهل نصر ، هو الآخر ، في مشيته فقال له بصوت لا يخلو من جفوة :

- عم صباحاً ... ونظر الى الرجل نظرة متأمل . وجدت عيناه على وجهه . فبدا له ان هذه القسمات التي يطالعها الساعة امامه تستفيق في ذاكرته من غفوة طويلة في زاوية منحذفة . وكذلك بدا الرجل وهو يتفحص وجه نصر . ثم التمعت في عينيه وشفتيه

ابتسامه ، فقال :

— اكبر ظني أننا تعارفنا من قبل في موضع ما .

اجابه نصر :

إذا صحت ذاكرتي فأنت صاحب الناقصة والبعير الذين
شردا يوماً فلحقا بقطيع يرعاه فتى من بني عذرة ، ثم جئت
تطلبهما ، لكن عدت وقد تركتهما منحة للفتى .

قال الرجل : لم تخطئ . وانت هو الراعي نصر !

صاح نصر : اخي عروة ! يا لمصادفة السعيدة !

وتعانقا عناق الاخوين .

وقال عروة وهو يأخذ بيد نصر فيدخل به الواحة .

— عذراً ، يا اخي ، اذا كنت قابلتك بارتياح . فنحن هنا لا

نخلص من جندي يزورنا من جنود هذا الوالي المستهتر حتى نتعرض
لزيرة اعرابي سارق ، او مهد لغزو يأتينا ليلاً .

اجابه نصر : ثق اني لا هذا ولا ذاك . وانما ساقطني اليك ،

كما قلت ، مصادفة سعيدة وانا ساع في شأن من شؤوني .

قال عروة :

— اعرفك ، يا نصر ، فتى كريماً . ولم يخطر لي قط ان ارميك

بشبهة ... تعال ، تعال الى ماء بارد وبعض طعام ، ثم حدثني ما

فعل بك الزمان .

ومشى الرجلان الى خيمة من الخيام ، فشرب نصر وأكل وهو

يفكر في هذا التوفيق الذي لقيه على غير انتظار ، ويحس بالامل

يتعاضم في نفسه ، ويفكر بهذه السمعة السيئة التي ازدوج بها اسم

ابن ام الحكم .

وأعاد عليه عروة القول بعد ان فرغ من طعام أكله على عجلة :
 - والآث ، حدثني ما . فعل بك الزمان يا نصر ، هل تزوجت
 فتاتك التي احببت .

اجابه نصر :

- تزوجتها . ثم حدث ما ' يحزن ويغضب .

فردّ عليه عروة وقد اتسعت عيناه :

- وماذا حدث ؟ هل افلح في كبدك ذلك الفتى الجلف ؟

ففهم نصر انه انا يعني فانكأ . فأجابه :

- لا ! ذلك غاب من الطريق الى الابد .

- واذن ؟

- كادت لي امرأة عمي وهذا الوالي الذي ذكرته فوصفته
 بالمستهر . خرج الى الصيد في نواحيننا ، فذهبت العجوز الدنيئة
 لمقابلته بابنتها . فلما وقعت عليها عينه حتى ارادها لنفسه . جلدني
 وسجنني بحجة انني نفرت طرائد الصيد من طريقه ، ثم سعى في
 ان يرضيني بالمال ويزوجني جارية من جواريه ، سبيشة رومية
 مسكينة . فأبيت . فأمسكني في سجنه ، وعقد لنفسه على امرأتي .
 وانا الساعة هارب من سجنني بعد ان حضرت ليلة امس ...
 عرسه .

وغصّ نصر بآخر كلمة .

قال عروة وقد كزّ بأسنانه :

- يا للفاجر ! فماذا تنوي ان تفعل الآن ؟

- انا في الطريق الى دمشق اشكوه الى الخليفة معاوية

ابن ابي سفيان .

— نعم ما تصنع ! وربما لم يكن معاوية افضل من واليه .
لكنك تفضح ابن ام الحكم على كل حال . فاذا لم ينصفك منه
معاوية فضحته هو الآخر .

قال نصر وقد امتنع لونه لحاظ مر في ذهنه :

— شيء واحد اخافه : ان تكون امرأتي رضية بطلاقي نزولاً
على اغراء او تهديد .

— مثل هذا الطلاق لا يكون له معنى .

فقال نصر وقد راجع نفسه :

— بل ارى الطلاق احتمالاً بعيداً جداً . واستمع ان امرأتي تصطنع
الجنون دفعاً للوالي عنها . والآن يجب ان لا ابطيء عن المسير .
قال عروة :

— اجل ، يجب ان تسرع . لكني اراك بلا زاد ولا مطية .
ودمشق ليست من هنا على رمية حجر . فقد تهلك جوعاً وظمأً
قبل وصولك اليها على رجلك في اسابيع . انتظري اذن قليلاً .
ومضى عروة هنيئاً ، ثم عاد بجواد ضليع ، عليه خرج وزاد .
ثم قال لنصر :

— هبة لك مني ، يا اخي . فاقبله قبورك النفاقة والبعير .
واركبه الى دمشق واجهده في الجري فانه يطيق .

فغمرت الابتسامة شفتي نصر وترقرقت في عينيه الدموع ، لا
يدري ما يصنع الا ان يقول لهذا الرجل الاربحي ابلغ كلمة
يقولها امرؤ في مثل هذا الموقف :

— شكراً !

فأجابه عروة :

- كلا ، لا شكر . فحق أنك تسعى في شأن يهلك ، لكن الشكوى على ابن ام الحكم تهما جميعا . فنحن هنا في هذه الواحة نكابد من خرابته وتطاول جنوده وتقاعسه عن حمايتنا من الغزو شراً شديداً . لقد حلت ، يا اخي ، حلاً لهذه الصحراء التي نتيه فيها ، شئت إخراجـه الى الوجود في حيث لا يستحيل الامر . سألت نفسي : علام لا نتعلم عيش الحضر فهو خير من عيش البدو ، خير من هذا التشرذم الابدي في طلب الماء والعشب . وكنت شهدت على حواشي الصحراء - بما يلي جهة دمشق - بيوتاً تشاد عند بئر من عطاء الطبيعة او عند مياه من الشتاء تحققن في احواض كبيرة ، فيجتمع الناس عليها في قرية صغيرة ينصب فيها الزرع ويدرو الزرع . وفهمت ان معاوية لا يكتف رضا عن مثل هذا التحضر . فأقبلت على الماء هنا ، وأهله عشيرتي ، فقلت لهم : نصلح ماءنا ونختزن معه شيئاً من مطر الشتاء فنسقي ونزرع ونتعهد المواشي مقيمين لا نخط الرحال ولا نشدها . وننهج سبيلاً كسبيل سبي عروة ابن الورد وصعاليكه اذ كان يصيب كل واحد منهم نصيباً مما يحصلونه جميعاً . إلا اننا لن نغزو غزواً شأن عروة وصعاليكه . بل نستنبت رزق الارض ونختلب خير الزرع . فقالت لي العشيرة : ما اغرب ما ارتأيت ! او ما تدري ان النخلة مربوط الذل ؟ فأنت مكررة على البقاء الى جانبها ، لا نستطيع ذهاباً عن ضم يمالك وظلم ينزل بك . فهزأت بعقولهم ، ووفقت الى اقناعهم . فماذا كان ؟ جأنا هذا الفاجر ابن ام الحكم لا يشبع من ضريبة ، ولا تكف عنا جنوده ، ولا يحوطنا من غزو من يطمع في رزقنا . فاذا رجعنا اليه قال لنا : و اعجب بما انتم عليه . فكيف تكونون

ضبعة ثم لا تكونون إقطاعاً لأحد الأمراء ؟ ، فهذا ما يبلغه آخر فهم الرجل . إما ان تصورنا بدواً رُحلاً نعاني قسوة الصجرء او عبيد ارض نعاني سوط سيد أقطاع ، وإما ان لا يتصورنا شيئاً . غير اننا نأبى ان نبقى في حدود ما يرسمه لنا تصور هذا القدم الغبي . وارجو ان نفلح ، وإلا فنكون قد زرعنا بذوراً للمستقبل ... لكن عفوك . احسب اني ابطأت بك وأطلت عليك الحديث في امر ما اظنه يعنيك جداً . فامض الآن على بركة الله . قال نصر وهو ينظر في عيني محدثه ، وقد عظم به إعجابه كيف فتق ذهنه هذا الابداع :

- ومن زعم لك ان الامر لا يعنيني جداً ؟ سأسرع الى دمشق كما تقول ، فاطلب لي ان اوفق . وعسى ان نخلص من ابن ام الحكم . وسترى اني اعود اليكم فأمكنكم في هذه الواحة اعمل عملكم ، اذا رضيتم بي . - وكيف لا نرضى بك ؟ وارجو ان تكون يومئذ قد فزت بامرأتك .

وتعانق الرجلان عنفاً طويلاً .

ثم وثب نصر الى ظهر الجواد ولكزه فانطلق به . وتلفت يلوّح بيده ، مودعاً صاحبه آخر الوداع ، فسرّه مشهد لم يتنبّه له من قبل : مشهد الصبية الصغار وقد خرجوا صباحاً من الحيام فوقفوا يشيّعون هذا الفارس الغريب بنظرات من عيون سوداء برّاقة ، واسنان تنحسر عنها الشفاه بيضاء بياض الحليب النقي . شدّ ما تفاعل نصر خيراً بهؤلاء الاطفال . ثم لم يملك ان انتقل انتقاله بالفكر الى ذلك الحارس الذي قطع عنه حباله ، ثم الى هذا الرجل

الاربحي الذي وهب له الجواد . فأحس انه ليس فريداً وحيداً في كفاح هذا الامير الظالم . وتم في سره : سبحان الله كيف يجمع الظالم الناس على انفسهم !

وطار الجواد - كأنما ركبت في ارجله الاجنحة ! - ينهب به المسافات المترامية بين البادية ودمشق . ونصر لا يقف الا على ماء او عشب ريثما يسقى ويقوت جواده ، ولا يتمل الا ليتناول لقيات من زاده يسد بها بعض جوعه .

وكان نصر - وهو خارج من رحيم الصحراء قاصداً دمشق لأول مرة - يحس في قلبه خفقاناً حلواً كلما لقي في الطريق انساناً ، فاستنبأه ، فقال له : انك تدنو من دمشق ، فواصل سعيك في هذا الصوب الذي تسعى فيه . وقد سمع نصر العجائب عن دمشق . ففيها نهر غزير الماء ينفجر فيجري حلالاً زلالاً للشاربين من حيوان وانسان وشجر ونبات . وربما جرّت منه مياه الى الاحياء فتدفقت على السبل بين البيوت ، وفي باحات القصور . وفي دمشق ايضاً بساتين الغوطة التي تكسو بقاعاً واسعة متصلة من الارض ، فتجعل منها رقعة واحدة خضراء تتراعى على مدى سفّر العين . ولقد سمع نصر ببديوي قبله اشرف على دمشق فلما رآها هتف : هذه هي الجنة ! ثم قفل راجعاً وهو يقول : لا تدخل الجنة مرتين ... خشي ان يحرم جنة السماء اذا دخل جنة الارض . وابتسم نصر لذكرى هذا البدوي . اما هو فسيدخل دمشق الجنة ، وسيسترد سعاد التي هي جنته ، ولن يصدّق ان دخول الجنات في الارض يمنع من دخول جنة السماء .

وجاء مساء استشعر فيه نصر ان الانسام اخذت تسحب على

محيّاه ذبولاً مبتلة بالماء ، وان الهواء حوله تفوح منه روائح الحُضرة .

ثم ما لبث ان أطل على قبابٍ ذاهبة في الجو ، واغصت مورقة ناضرة . وسمع الجداول تنصبّ مصوّنة كأنها تثور وتتشاحن في حديثٍ خطير . فعلم انه في دمشق ! وما كاد يجتاز باب الجابية - هذا الباب الذي فتحتهُ المدينة الى جهة البادية - حتى اقفله الحارس وراءه مع تكاثف ظلمة المساء .

قال نصر لرجل مـارّ في الطريق بعد ان نزل عن جواده ووقف الى ناحية يفكر فيما يصنع :

— ألا تداني ، يا اخا العرب ، على قصر امير المؤمنين ؟

فنظر الرجل الى هذا الاعرابي في ثيابه الزرّة . ثم نظر الى الجواد الجميل الذي يمسك عنانه بيده . فخطر اول ما خطر لهذا الدمشقي ان يعقد صفقة تجارية صغيرة يفوز فيها بربح على حساب سداجة الاعرابي . قال له :

— هذا الجواد ملكك ، يا اخا العرب ؟

اجاب نصر وقد ارتاب للسؤال المفاجيء :

— نعم هو ملكي . ولمّ يعنيك هذا ؟

قال الدمشقي :

— فهل تبيعه ؟ اني طالما اشتقت ان اقتني جواداً عربياً من

البادية .

قال نصر غبّ هنيهة من تفكير لم يكن فيه اقل خبثاً من

الدمشي :

— لا ابيع الجواد من سواك اذا احتجت الى بيعه . لكنني

سألتك ان تدلني على قصر امير المؤمنين فما سمعت منك جواباً .
قال الدمشقي وما انفك منصرف الذهن الى الصفقة التجارية :
- قصر امير المؤمنين ، قصر الحُضراء ، لا يحيطه احد ...
أراك غريباً في البلد ، وافهم انك تطلب المثل بين يدي الحليفة ،
وسيطول عليك الوقت قبل ان تظفر بالدخول عليه . ولست -
على ما أراك - في حالة تمكنك من الانفاق . فانصح لك ان تبيع
هذا الجواد لرجل مثلي صاحب ذمة ودين ، وإلا أراك تجار دمشق .
اجابه نصر : الامر كما تقول . واذا دللتني على مكانك ، قصدتك ،
فبيعتك الجواد يوم احتاج الى بيعه . لكن قل لي بالله : كيف
السبيل الى مقابلة امير المؤمنين ، فاني ما جئت الا لاقابله في
شأن ملح .

اجابه الدمشقي ، وعينه على الجواد الذي وقف بلبيل الغرّة
بالعرق ، فاتحاً منخريه للهواء الرقيق :
- اني انصح لك ان لا تؤجل بيعه . وقد تقصدي يوم تضطر
الى بيعه ، فلا تجدي ، او لا تراني مستعداً للشراء .
قال نصر ، وهو يكبت ابتسامة همّت بالارتسام على شفّيه
لشدة اصرار هذا التاجر :

- نبّئني ، يا عبد الله ، كيف استطيع مقابلة امير المؤمنين ،
وسأعتبر منتك هذه داخلة في ثمن الجواد ، فلا آخذ منك يوم
احتاج الى بيعه الا ما يكون ميسراً عندك من مال .
فبرقت عينها الدمشقي وجرع الريق الذي تحلب في فمه ، ثم
قال لنصر :

- هبّا نخر معاً .

فسار نصر يتلّ جواده ، وسار الدمشقي ، في زقاق .
قال نصر :

— وهل يسكن الخليفة في مثل هذا الحي ؟
اجابه الدمشقي :

— كلا ، ولكني ادّلك على مكاني لتأبيني يوم بيع الجواد !
اجابه نصر وقد غلبته الابتسامة هذه المرة ، فتعلقت بشفتيه
ساخرة :

— حسبتك ستدلي علي هذا القصر الذي سمّيته قصر الحضراء ،
وتؤشديني الى طريق اقابل منه أمير المؤمنين .

ودار نصر عازماً على الرجوع . فقال له الدمشقي وقد شعر
بانه لن يستطيع استدراج الاعرابي الى ابعد من ذلك :

— عد ، عد ، يا اخا العرب . ومكاني على قيد خطوات من هنا .
لقد اصبحت اذن تعرفه . إسأل عن ابي فلان ... اما أمير المؤمنين
فان له يوماً يقعد فيه للناس . وما عليك حين تأتي القصر الا ان
تطلب الاذن لك من الحجاب .

فشكر له نصر هذا الارشاد ، وتركه . وكانت آخر كلمة
زوّده بها الدمشقي :

— لا تنسَ وعدك ببيع الحصان لي ، يا اخا العرب . ان وعد
الحر دين .

فأجابه نصر قاذفاً بكلماته وراء ظهره :

— هو ذاك ، فاطمئن ، اطمئن !

ونام نصر ، تلك الليلة ، وجواده تحت القمر والنجوم . فما
بزغ الفجر وطفق الناس يضطربون في الشوارع حتى كان اعرابي ،

يقود جواداً ، يستوقف بعض السابلة يسألهم عن قصر الحُضراء .
ولم يكن الاهتداء الى قصر معاوية صعباً . وشخص نصر لدى
الباب الخارجي يوميء الى الحارس الذي تحول نحوه ببطء وزهو ،
وقلب نصر يخفق خفوق من يواجهه موقفاً يعلّق عليه الامل ولا
يستبعد الحية .

الفصل الثاني عشر

تقدم الحارس من نصر وعلى كتفه رمح مسنون طويل ، وإلى وسطه سيف مرصع القبضة في غمده . فأثبت عينيه ، تحت حاجبيه الكثيفين ، في وجه هذا الاعرابي الشاحب الزرّي اللباس . ثم قال له وفي صوته نبرة انتهار :

— ما شأنك ؟

اجابه نصر وقد احب ان يستوثق من شيء :

— قل لي بالله عليك هل انت دمشقي ؟

فلم يملك الحارس ان يبتسم لهذا السؤال الذي كشف له فوراً عما لا بد ان يكون هذا الاعرابي عاقاه في دمشق . اجابه :

— كلا ! بل رجل من عرب اليمن .

فاستأنس بذلك نصر ، واطمأن الى ابتسامة الحارس ، وقال له بعد تنهدة ارتياح :

— وانا مثلك ، اصلي من عرب اليمن . أعرابيّ ضعيف من بني

عذرة من البادية . لحقتني ظلامه ممن لا قدرة لي عليه . فلما ضاقت بي الوجوه قصدت امير المؤمنين ارفع اليه شكواي . وقد لقيت اصحاب مروءة شجعوني وأعانوني . فهذا الجواد الذي تراه خلفي منحة منحنيها رجل لأطوي به المسافة بين البادية ودمشق . واتفق لي ان عرفت حارساً مثلك اسدى اليّ معروفاً عظيماً . بقي ان

اجد عندك مثل هذه المروعة ، وما اظني الا واجدها ، فتيسر لي الدخول على الخليفة . وعسى ان اشفي على يدك جرحاً في قلبي .

قال الحارس وقد تسربت الى نفسه الرقة لحديث هذا الاعرابي ، واستيقظ فضوله لمعرفة ظلامته :

— لو زدني علماً ، يا اخا العرب ، بما جئت تسعى من اجله ... لكن ما دمت من بني عذرة ، وما دمت ذكرت جرحاً في قلبك ، فيخيل الي ان في الامر حكاية امرأة وحب . اجابه نصر وقد دهش :

— انك صادق الفراسة ، يا اخي . والمرأة امرأتي وانا احبها ، وهي تحبني ، الا ان يكون غيرها ما حدث .

قال الحارس وهو يشعر انه وقع على حكاية يتسلى بها عن هذا الضجر الذي يلزمه في وقفته الدائمة على باب القصر :

— وماذا الذي حدث ؟

— غصني الوالي امرأتي . استدرجتها اليه امها طمعاً بالمال . وحبسني الوالي . وعقد لنفسه عليها وأولم عرساً عظيماً . ردّ عليه الحارس :

— فاذا كانت امرأتك تغيرت عليك فلا يبقى معنى لشكواك .

— كلا ! عندي يقين انها ما زالت على العهد . بل سمعت انها

تظاهرت بالجنون لتدفع عنها الوالي .

قال الحارس وقد ارتسمت على شفتيه ، هذه المرة ، ابتسامة

كرهها نصر وانقبض لها صدره :

— وهل صدقت ؟ واية امرأة لا تؤثر والياً على مثلك . فخذ

مالاً بها ، ان استطعت ، واسدل عليها ستراً من نسيان . وبعد ،
فما المرأة ؟ شيء لساعة في فراش ؟ لم ألق رجلاً الا رأى معي
هذا الرأي .

فأجابه نصر متجلّداً على هذه الخناجر التي مزقت نفسه مع
كلمات الحارس :

- اولئك ، يا اخي ، لا يحبون حباً . ولكن يريدون - كالذي
يبصق - ان يتخلصوا من شيء احتقن فيهم . او هم في خير
الاحوال يطلبون ولداً .

ثم تحول نصر لينصرف وهو فاقد الرجاء الذي عقده على هذا
الرجل بعد ان دار الحديث هذا المدار .

فقال له الحارس وقد أنّبه ضميره لشعوره انه آلم جداً هذا
الاعرابي الذي لم يتهياً - في زعمه - لمذهب سميت به اليه عيشة
الحضر وعودته اياه حياة الجندية :

- رويدك ، رويدك ، يا هذا . ما عمل امرأتك - حين اعتصمت
بالجنون - غريباً على نساء بني عذرة . وما عملك انت - حين
كددت بين البادية ودمشق - غريباً عليكم معشر العذريين .

فوقف نصر يتجلى في قسبات محياه عرفان عميق للجميل ،
كأنما اسدى اليه الحارس بتلك الكلمات منّة لا تقوّم بشئ .
واستطرد الحارس يقول :

- تريد ان تقابل امير المؤمنين بنفسك ، وليس لك - فيما
ارى - احد يوصل اليه دعواك . فاعلم ، اذن ، ان له خطة يسلكها
في عمل نهاره . فبعد ان يتناول الغداء الاصفر في الصباح ،
ويتحدث حتى تصعد الشمس في قبة الفلك ، يأمر غلامه فيخرج له

الكرسي الى المسجد ، فيجلس عليه مسند الظهر الى المقصورة ،
ويأذن لعامة الناس بالدخول . فادخل انت ساعتئذ واعرض شكواك .
واني انصح لك ان تفتتح كلامك بأبيات من شعر انت كنت
تنظمه - فان الخليفة يحب الشعر من افواه بني البادية .

- وهل تدلني على المسجد ، يا اخي ؟

- هو هنا قريب عند القصر . وكثير مثلك يأتونه في هذه
الساعة . فلا تهتم .

فشكر نصر الحارس شكراً حاراً . وانصرف عنه يقود جواده
بانتظار الشمس ان تصعد في قبة الفلك ، وبانتظار القريجة ان
تليه بأبيات من الشعر .

وكانت ساعة من العراك بين نصر والاوزان والقوافي ، وهو
مشغول البال بهذه الكرة النارية التي لم ينفك يتلفت اليها ساجدة
صعوداً سبجاً بطيئاً في سماء دمشق . ولم يستطع ، على شدة انفعاله ،
ان يقطع من معدن قريحته سوى اربعة ابيات . ثم ادرك ان
الميعاد زحمه ، فأسرع يطلب المسجد . ورأى جمهوراً غفيراً يندفعون
اندفاعه ، فاذا هم مثله يطلبون المسجد . فاطمان الى انه لن يخطئ
موضعه . ووفق يستعيد في سره هذه الابيات التي نظمها على
استعجال ليفتح بها خطابه للخليفة . لكن لم يطل به الامر في
سعيه الحثيث حتى وجد نفسه على باب المسجد . وكأنه لم يفتن
من قبل الى هذا الجواد الذي يجره وراءه ، فما يصنع به ؟ ربطه
الى ناحية غير آبه بما يصيبه . ثم دس نفسه في الجمهور ، يشق
الصفوف الى داخل المسجد فعل ذاهل العقل . فوكزه رجل اشار
الى نعليه المقطعتين وأمره بخلعهما وغسل رجليه ... ما اطولها

من قصة ! - ثم نصر في سره . ونزع نعليه ، ثم انكأ نحو ماء
يجري قريباً من عتبة المسجد ، فنقع به قدميه المغمورتين نعمة خفيفة ،
وعاد يزاحم الناس الى الصف الاول ونعلاه تحت إبطه .

من ذا ؟ تساءل نصر في نفسه ، وقد حطت عيناه على حرس
مسلحين يحيطون بكهل ملتجئ ، مهيب ، بدين ، كبير البطن ، في بحياه
آثار وسامة ، ترسل عيناه نظرات هادئة نافذة ، تنقلت على الوجوه
حتى استقرت طويلاً على وجه نصر وغرابة هيئته .

فراى نصر ان يجمع جأشه فيتكلم .

قال كالمبغوت :

- السلام على امير المؤمنين .

ولحظ معاوية اثر البغته في وجه الاعرابي وصوته ، فحرك
شفته برّدٍ للسلام رقيق . وكان معاوية ، لدهائه ، شديد الحرص على
ان يستشعر منه الناس ، اذا لقوه ، أنساً وليناً وعظفاً .

فانشأ نصر ينشده ، لا يدري هل يتذكر الاببيات كلها ام

تفوته ، قال :

معاوي ، يا ذا الحلم والفضل والعقل
وذا البرّ والاحسان والجود والبذل
اتيتك لما ضاق في الارض مسلكي
وأُنكرت مما قد اصاب به عقلي
ففرّج رعاك الله عني فداني
لقيبتي الذي لم يلقه احد قبلي
وخذلي ، هداك الله ، حقي من الذي
رمانني بسهمٍ كان اهونه قتلي !

لقد تذكر نصر الابيات كلها فاحسن تذكرها . ولقد ارعش صوته في بدء الابيات ثم استقر جهورياً فموج بأصدائه جنبات المسجد . وتهامس الناس بجرأة هذا الاعرابي ، واعجبهم صفاء لهجته ، الا متمنتين في الدين كرهوا ان يجوز انشاد الشعر في المسجد . وفيما راح نصر يمسح جبينه الذي رشح بالعرق ، قال له معاوية :

- ولكنك لمحت ، يا اعرابي ، ولم تصرح .
فاندفع نصر يقص على امير المؤمنين قصته بتفصيل : كيف احب ابنة عمه سعاداً واحبته في مضارب بني عذرة في البادية ، فتزوجا ، وامها غير راضية لفقره وطمعها في المهر العظيم . ثم كيف اقبل الوالي ابن ام الحكم بصطاد في نواحي الحبي ، فما وقع نظره على سعاد بتدبير من امها ، العجوز الماكرة ، حتى اشتهاها لنفسه . ثم كيف اتهمه الوالي زوراً وبهتاناً بتنفيذ الطرائد فاعتقله وجلده حتى الموت ، وسجنه في الحبس . ثم كيف استدعاه وشاء ان يذهله عن نفسه بالحمر ويغره بالمال ويؤوجه عوض امرأته جارية منكودة الحظ من سبايا الروم . ثم كيف رده ابن ام الحكم الى السجن وعقد لنفسه على سعاد وافام عرساً ملؤه البذخ والابته ، مع ان نصرأ لم يطلق سعاداً ولن يطلقها الا بطلاق روحه . ثم كيف تبسّر له ان يفرّ من المعتقل فيأتي دمشق يعرض شكواه على الخليفة .

وقد اصى اليه معاوية وعلائم الاهتمام تتجلى في قسمات محياه . فليست هذه بالشكوى الوحيدة التي يسمعها من سيرة ابن ام الحكم - رجل سريع اليد الى تناول سوطه واستعماله ، مبالغ

في جباية الضرائب وانفاقها من اصحاب المواشي ، واهل الزراعة وقليل ما هم في الصحراء ، مبطين في اخراج العطاء لجنوده ، هم في النساء . والدولة ، الى خطر البيزنطيين في الخارج ، تعجّ باحزاب المعارضة في الداخل : شعبة في العراق ، وزيريون متربصون في الحجاز ، وهذه البادية التي يقوم ابن ام الحكم على ولايتها ارض خصبة للخوارج ...

وطال صمت معاوية . ونصر ينتظر على جمر ، والناس ينتظرون . فلما حرك شفّتيه للكلام ، كان كل ما قاله :
- وما اسمك ، يا اعرابي ؟

- نصر يا مولاي ، من بني عذرة .

- امض الآن ولا تحاول ان تبرح دمشق .

فخرج نصر ، لم يشف غليلاً ، وهو يفكر في ما عسي ان يكون قصّد الخليفة بهذا الامر الغامض . ومضى يطلب حارس القصر الذي لقيه في الصباح ، فلهله يعينه على فهم ما عجز عن فهمه . واوشك نصر ، لانشغال باله ، ان يذهل عن جواده الذي تركه مربوطاً الى ناحية في خارج المسجد .

قال له الحارس حين اتاه :

- لا عليك ، يا اعرابي ، الا اذا كنت لفقت دعواك تلفيقاً .

إخال معاوية سيهتم لشكواك بنفسه . فلازم دمشق كما امرك ، وتردد عليّ كل يوم ، فأنبئك بما يجدّ ويبلغ مسامعي .

الفصل الثالث عشر

وضع معاوية التاج على رأسه (زيّ قيسه من اباطرة البيزنطيين) ،
ومشى الى البهو الكبير في قصر الحضراء ، فجلس على السرير (عادة
اخرى تلقّتها من بيزنطية) وأمر بان يؤذن للناس بالدخول على
قدر منازلهم . ففاض المجلس بالوافدين ، ومعاوية يرد عليهم السلام
ويتصفح وجوههم حتى تلبّثن وجهاً فرزدقياً سميناً عراه الامتقاع
ساعة وقعت عليه عينه - وجهاً عرّف في صاحبه واليه على البادية
ابن ام الحكم ، فأوماً اليه إنياء خفيّة بان يُدني منه مقعده .
فأطاع الوالي وقد زاد امتقاعه واشتد اضطرابه ... ذلك انه كان
ادري اهل المجلس جميعاً بان الخليفة لم يحرص على تقريب مقعده
منه تكريماً او تعظيماً !

وانصرف ابن ابي سفيان الى واليه بمشهد من الجميع ، فقال
له وهو يبتسم تلك الابتسامة الداهية التي تعيد القلق طمأنينة :
- انك لم تبطيء في الحضور .

فأجابه ابن ام الحكم :

- كيف ابطيء وقد دعاني امير المؤمنين ؟

- وهل حضر معك احد سواك ؟

- احضرت من فهمت من كتاب امير المؤمنين ان حضوره

واجب .

— اهلاً وسهلاً بك ، يا ابن ام الحكم . فكيف خلقت البادية ؟

— في خير ودعاء لأمير المؤمنين .

— ولك ايضاً ؟

— الدعاء لي مضمن في الدعاء لأمير المؤمنين .

— ارجو ان يصح ما تقول .

واهل المجلس جميعاً يتلقون باسمعهم هذا الحديث المتوتر ، يجري في عبارات مقتضبة ، تنطوي على إلغاز خفي ولا تشف عن انشراح صدر الخليفة لواليه ، او عن ارتياح الوالي بين يدي الخليفة .

واشتد امتقاع ابن ام الحكم لدى العبارة الاخيرة ، وقد ارسلها معاوية في لهجة تدل على سخريه مبطنه . وقال الوالي وهو شبه مستفز :

— عفو أمير المؤمنين ، فما كنت احسب ان شكوى يلفقها اعرابي مهمل تنال من مثلي وانا الوالي الامين ، وتترك هذا الاثر في نفسك ، وانت اعلم بهؤلاء الاعراب الذين كلفتني الولاية عليهم ، ما اكثر ما ينسجون من نهم في سبيل شيء نسترضيهم به ، وما اكثر ما يستعلمهم اعداء الدولة من خوارج وشيعة وزبيريين للتشيع على الولاة المخلصين والتشويش والمشغبة في الرعية . قال له معاوية معتصماً بهدوء ظاهر :

اما وقد حضرت يا ابن ام الحكم واستعجلت اثارة هذا الموضوع ، في هذا المجلس ، فعل من يعتقد البراءة في نفسه ولا يخشى ضعف دفاعه ، فليكن لك ما شئت ، ولنتجاوز الساعة عن هذا الاعرابي الذي استهنت شأنه وقضيته . اني اسألك عن هذه

الضرائب التي لا تملّ جبايتها وتبديدها في ولائهم الزواج والملاذ .
 واسألك عن هذا السوط الذي لا تنفك تستعمله على الناس بيدك
 او بأيدي جنودك كأنك لم تسمع بقول عمر بن الخطاب :
 لا تضربوا العرب فتخرجوهم او تذلوهم ، وكأنك لم تسمع
 بقولي : لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع
 سوطي حيث يكفيني لساني . ثم اسألك عن جنودك ، هل تدفع
 لهم ارزاقهم في موافقتها ؟ واسألك عن اوائك النفر من البدو الذين
 بدأت تطيب لهم حياة الحرث في قرى حول آبار الماء واحواضه
 يجعلون منها واحات في الصحراء ، هل تخفف عليهم من ضرائبك ،
 وهل تكفيهم شرّ جنودك ، وهل تقيهم من سطو من يطمعون
 في غزوهم ؟

فبهت ابن ام الحكم ، ينظر في الارض ، تضايقه هذه العين
 الساهرة يتناول بها صاحبها كل افق ، ونخرجه هذه اليد الطويلة
 الباع بمدّها صاحبها متجسّسة باصابعها الخفية كل غور . ولكن ابن
 ام الحكم ابى ان يخضع لهذا التجريد من سلاحه ، فقال لمعاوية
 يعبد الكرّة :

— اعداء الدولة كثر ، يا امير المؤمنين ، خوارج وشيعة وزبيريون .
 وهم لا همّ لهم الا ان يشتعوا على الولاة .
 اجابه معاوية بذلك الصوت الذي لا يفقد رزاقته وهدوءه مهما
 يشتد بصاحبه الانفعال :

— حجة واهنه لا يرضاها معاوية ، يا ابن ام الحكم ...
 ان الخوارج والشيعة والزبيرين ليتقولون الاشياء على الدولة .
 لكن ما شغلك انت ؟ ان تسلك السلوك الذي يعينهم فيما يتقولون

ويشتعون ، ثم تأتيني معتذراً بأن اعداء الدولة اخترعوا هذا وذاك عليك ؟ عوفيت ، عوفيت ! ما اسهل هذا الخط من الدفاع الذي اقمته لنفسك . تطيل يدك على اموال الناس ، وتتهالك على غضب النساء ، وتعتمد فوراً الى سجنك وسوطك ، ثم يكون كل من كره منك عدوانك شيعياً او خارجياً او زبيرياً . وتتغنت في التعامل عليه وقهره حتى لا يرى مذهباً له إلا ان يصير شيعياً او خارجياً او زبيرياً . ثم تقول فعل من أوتي القدرة على التنبؤ بالغيب : انظروا ، كنت على حق ! كلا ، يا ابن ام الحكم ، كلا ! ان اعدائنا يجورون . ولكنك اذا كنت جائراً في نفسك وسيرتك ، فمحض جورهم ان يجعل منك عادلاً ولا فاضلاً ، ولن يهينك عذراً ، ولن يعفبك من تبعة . هل تفهم ؟ .. والآن قم فجنني بمن احضرت معك بمن له علاقة بقضية صاحبك الاعرابي ، فاني عزمت على النظر فيها بنفسي . وعد مسرعاً .

فنهض ابن ام الحكم متثاقلاً ، برغم انه كان لا يشتهي شيئاً كأن يفلت من هذا القفص الخانق . وخرج مرتبك الخطى ، يتقاوى امام اهل المجلس الذين اوشك ان يعثر بنظراتهم ، ولم يبق منهم من لم يلمح بصيصاً على جبهة الوالي - بصيص فطرات من عرق كالتي تبعثها الحمى في المريض .

ثم توجه معاوية الى اهل مجلسه فقال لهم :

- حضور ابن ام الحكم ، والينا على البادية ، أجد لنا عملاً مفاجئاً لم يكن في الحسبان . فانصرفوا اليوم .

فما عبرت هنيهة حتى تفرق اهل المجلس ، في صمت ضاغط تخلله همسات وأرجل تنسحب وثيدة على الارض .

ودعا معاوية بغلام من خاصته امره بان يمضي الى صاحب شرطته فيقول له : ان امير المؤمنين يطلب منك ان تأتيه فوراً بالاعرابي نصر من بني عذرة ، وهو الاعرابي الذي اوصاك بان تجعل عينك عليه في دمشق .

وتلت هنيهة خلا فيها الداهية معاوية بن ابي سفيان الى نفسه . وعاد يستعرض ما قاله الساعة لابن ام الحكم . ترى ، ألم يغلظ له ويشدد في القسوة عليه ؟

ولم تكن تفوت معاوية ، على استباحته الوسائل والاساليب كلها في سبيل توطيد دولته الجديدة ، ان يرجع الى نفسه في احيان كثيرة فيلومها او يرضى عنها .

وتساءل الداهية في سره : أفلا استحق انا مثل هذا التعنيف الذي اخذت به ابن ام الحكم ؟ وبعد ، فماذا يفعل ابن ام الحكم ؟ يتطاول على النساء ، وإني انطاول عليهن . ويبتز الضرائب ، وإني أبتزها . وينفق بذخاً ، وإني أبذخ . ويبطئ في عطاء الجنود ، وربما وقع لي مثل ذلك . ويضرب بالسوط ويسجن ، وإني لا استغني عن هذين ، بل قد أوسّ السم لمن ارى ضرورة صرفه من الوجود ... وتمهل الفكر لحظة بمعاوية . ثم ما اسرع ما قال لنفسه : غير

ان بيني وبين هذا الراي فرقاً . فاني ما تغيب عن عيني ، في كل عمل آتية ، مصلحة هذه الدولة الجديدة التي شئتها جديدة للرعية يختلف بها يومهم وغدهم عن امسهم في ظل بدواة جاهلة قذرة ، وظل نير من الفرس والروم . ومع ذلك فكيف ابني هذه الدولة الجديدة ؟ اريدها ملكاً وراثياً لابني وسلالتي . واستغلّ جداً ما خلف القديم من رذائل : ارشوا بالمال ، وابذر التفرقة

بالدسّ وايقاظ نعرات الحسد ، واقتل بالسّم . وها اني اتساءل :
هل يسوغ ، بل هل يمكن تشييد ما قصده من جديد ، بهذه الوسائل
والاساليب القديمة الملوثة ؟

لكن علامة الاستفهام الكبيرة التي رسمها هذا التساؤل الشجاع
في رأس معاوية قد بقيت بلا جواب يشفي . انها مأساة اصيلة في
التاريخ ، حتى يخلو التاريخ من المآسي .

وهنا عاد ابن ام الحكم فدخل على الداهية الاموي بصبيّة
وانية تظهر في قسّات محياها امائر الخطاف ابله ، تتبعها عجوز
كان وجهها لصفافته وتجمّده وسواده جلد جفّف في الشمس
فتقلص ، ورّجلان تتقلب اعينها الدقيقة في رأسها كالجرذ الذي
اطلّ من وكرة يسرق شيئاً ، وتضطرب شفاهها كأنها يرددان
كلاماً ملقناً حفظاه على ظهر قلب .

ثم اقبل على الاثر حاجب يدفع بنصر الى حضرة امير المؤمنين .
ولم يكن صعباً على صاحب الشرطة ان يعثر بهذا الاعراي ، فقد
كاد يلزم الحارس على باب القصر ليله ونهاره يستطلعه هل جدّ
من جديد .

واوشك نصر حين دخل هو قصر الخضراء ، ان لا يسلم على
معاوية ، بل اوشك ان لا يراه جالساً على سريرده يقلب نظراته
كأنه يسبر اغواراً خفية وفوق رأسه الناج الثقيل . ان وجهاً
لاح لنصر فغطى في عينيه على كل الوجوه . كان هو وجه سعاد ،
وقد نحف وشحب وارتسم فيه تحت العينين خطّان قوسيان بلون
الكحل الكامد . فاصفر نصر اصفراراً اختطف ماء الحياة من
محياه . وزادت سعاد على اصفرارها اصفراراً . وقد امّحى من

وجهاً ذلك الطابع ، طابع البله المصطنع ، واضاءت عيناها بشرارة ، لكنها انطفأت سريعاً ليحل محلها وجوم مقفر عميق . ثم أدار نصر نظراته فتبين وجه الوالي ابن أم الحكم ، ووجه امرأة عمه ، ثم طالع وجهين غريبين لم يسبق له ان شاهدهما .

وبادره معاوية بالسؤال : يا اعرابي ، أهذا هو الوالي ابن أم الحكم خصك ؟ أهذه هي الفتاة سعاد ابنة عمك ؟ وهل هذه هي امها ؟

فردّ نصر بالاجاب إيماءً برأسه . وابن يجد الكلمات وهي لاصقة بجلقه ؟

فتابع معاوية : وما دعواك ؟

قال نصر وهو يجهد جهده للكلام : حدثتك الحديث ، يا امير المؤمنين ، يوم المسجد . ان سعاداً زوجتي . وقد كرهت امها ان تكون ابنتها زوجتي على فقري . ثم اقبل واليك ابن أم الحكم فحبسني بتهمة ملفقة ، وجلدني ، وسعى ان يغرنى بالمال ويزوجني . فلما أبيت ، عقد لنفسه على سعاد بمسمى من امها ، وامسكني في سجنه ، مع ان سعاداً زوجتي كما قلت .

فالتفت معاوية الى ابن أم الحكم الذي استجمع جأشه لبيدو غير مبال ولا مكترث ، وقال له :

- ألا تدفع عن نفسك التهمة ؟

اجاب ابن أم الحكم بجواب المطمئن الواثق ببراءته مما يرمى به :

- مولاي ، هذا الاعرابي كاذب . وحين جاءني كتابك يأمرني

بما يأمرني به ، ايقنت ان الاعرابي قد خلص اليك بعد فراره ليشتكوني . لكن لم اهتم لعلمي بأنني لم اخالف اصلاً من الاصول .

لقد طلق هذا الاعرابي امرأته قبل ان عقدت عليها لنفسه ،
وعندي على ذلك شاهدان .

واشار ابن ام الحكم الى الرجلين الغريبين اللذين لم يعرفهما
نصر ساعة دخل . فما اسرع ما بدرت شفاه الرجلين معاً بما لقنا
من كلام كأنهما ببغاوان في قفص واحد ... قالوا : نعم طلق هذا
الاعرابي زوجته في حضورنا . وصدق مولانا الوالي ، صدق .
فبغت نصر وترب وجهه . واطلقت سعاد صرخة ممزقة . واذن ،
فصحيح انه رضي بطلاقها .

ولكن نصراً تغلب فوراً على بغتته فقال :

— اقسم ، يا امير المؤمنين ، انني اجهل هذين الرجلين ، فلم ار
لهما وجهاً قبل اليوم . فمن هما ؟
فسكتت « احدى الببغاوين » لانها لم تعرف ما تقول بعد
الذي قالت . وانفردت الببغاء الاخرى تتكلم من انف بمخنخن :
— ويحك ، يا اعرابي ، اما تستحي ربك ؟ تكذب مثلي رجلاً
يقوم ليله للعبادة ، وقد شهدت انا وصاحبي طلاقك لامراتك ،
ورأيتك تقبض مائلاً من مولانا الوالي .

أفعم صدر نصر غضباً ، واحتقن محياه ، وجحظت مقلتهاه كمن
عُقد على عنقه حبل شديد ، وصاح :

— او يصعب على واليك ، يا امير المؤمنين ، ان يرشو هذين
الرجلين فيحوّل عبادتهما عن الله الى المال ويشهدا له بالزور ؟ لكن
لي شاهد صدق غيرهما ، هو جندي من جنود واليك كان يأتيني
بالطعام وانا سجين الحيمة . وهو الذي أنبأني ان سعاداً جنت لما
كرهت من زواج الوالي بها . وهو الذي قطع عني القيود لئلا

اقام الوالي عرسه على امرأتى ، فخرجت ساعياً اليك لتنصفني . اسم هذا الجندي عامر ، صورته محفوظة في لوح صدري . فأطلب ان يؤتى به ليشهد بما يعلم . ولي ايضاً غير هذا الجندي عامر شاهدة صدق هي جارية واليك . سبيّة رومية منكودة الحظ ، ادخلها على مجلسنا ونحن معاً في خيمته ، واراد بالحر والمال والتهديد ان يزوجنيها لاطلق له امرأتى . فأطلب ان تحمل اليك لتشهد لي بما تعرف .

وكانت معاوية يسترق النظر الى ابن ام الحكم ، فيما نصر يتكلم ، فلحظ كيف شحب وجه واليه عند ذكر الجندي عامر والجارية الرومية ، وقرأ في هذا الشحوب الحقيقة التي لا مجال معها لريب .

ولم يملك نصر ان تغرورق بالدموع عيناه اللتان همتا بالوثوب من رأسه . وكانت دموعه أفصح لدى سعاد من كل ما يمكن ان يقوله لسانه . وزادتها اقتناعاً ثياب نصر القديمة ، الثياب التي عرفته فيها وقد طال عليها القدم والارهاق حتى باخت وتمهللت . فصاحت :

— كلا ، كلا ، يا امير المؤمنين . لست اصدق انه طلقني . لقد انبأتني امي وانباتني الوالي انه طلقني لمال دفع اليه وتزوج امرأة غيري . ولست اشك في انهم اوهموه بدوره اني رضيت طلاقه افتاناً مني بان اصبغ زوجة الوالي . تلك مكيدة سافلة ، يا امير المؤمنين . عزلوني عنه وعزلوه عني . وحاولوا تسميم نفسي بالكذب عليه . وحاولوا تسميم نفسه بالكذب علي . لئن يكن طلقني حقاً وقبض مالاً ، وعدل عني الى امرأة سواي ، فعلام بقيت ثيابـه

القديمة هي اياها ، وكيف لم تظهر عليه آثار نعمة ؟ ثم لماذا لم
 يواجهني واليك واممي بهذين الشاهدين قبل اليوم ليشهدا ان نصراً
 طلقني امامهما في غيبة مني ، مع أنني ، يا امير المؤمنين ، ما زلت
 اصطنع الجنون ، منذ ان فصل بيني وبين نصر وتزوجني واليك ،
 لكي لا يمسي هذا الرجل الغاصب ولكي لا ننأى امي الناجرة بما
 شئت ان تقبضه ثمناً لي . وعندي شاهد ، هو والذي الشيخ
 الضعيف ، على أنني لم ارجع يوماً في زواج واليك ، بل بكيت
 بسواقي من دموع ، فمر بوالدي يحضر .

وراح معاوية يتأمل الصيغة البدوية وهي تتفجر في خطابها
 تفجراً . أعجبه شفتاها وقد لاحتا كأنهما قلبيتا على اللهب ، وسحرته
 مقلتاها بتوقد صفائهما وطول ما يظللها من اهداب ، وأحس ان
 السهد والهم والاضطهاد قد قنعت طلعتها بقناع من التعب والعباء
 لو زال لأشرق جمال هذه المرأة بما لا عهد به لانسان . وحاراً
 كيف يستند الى أسّ يفصل به في هذه الدعوى العجيبة . وما
 كان يعوزه لو شاء فوراً ان يستند الى أسّ الضمير . لكن خاطرة ،
 بل رغبة ، مرت بباله فقال يوجه الخطاب الى سعاد ويبتسم :

— يا سعاد ، ان والينا ابن ام الحكم تؤيده امك وهذان
 الرجلان ، يزعم زعماً وانت ونصر تزعمان زعماً آخر . ويطول بنا
 الامر اذا رحنا نثبت اي الزعمين اصح واصدق . فليس بالسهل
 استقدام والدك الشيخ ليشهد لك . وليس بالسهل استقدام هذا
 الجندي الذي سماه نصر وهذه الجارية التي ذكرها . فانا معاوية
 ابن ابي سفيان اعتبرك الساعة امرأة لا يقيدتها عقد زواج ما .
 فاذا مددت اليك يدي مخاطباً فهل تقبليني بعلاً ؟ ولن تكوني

اول اعرابية تزوجتها وأنجبت . فهذه ميسون بنت بجدل الكلية ، وهذا ابنها يزيد قرّة عيني ووارثي من بعدي .

لكن قبل ان تجيب سعاد انبرى ابن ام الحكم فهتف :

- ذلك كان قصدي والله ، يا امير المؤمنين . انني استكثرت

هذه البنية الحسناء على اعرابي زري ، فعقدت عليها لنفسي عقداً صورياً ، وما اردت الا ان اتخلى لك عنها اذا اعجبتك .

فنظر اليه معاوية نظرة فاهمة ، نافذة ، تعري دخيلة النفس ، ولم يجبه بكلمة على هذا النفاق . فالسكوت عن النفاق فيما بين الساسة قانون لياقة ولباقة في معظم الاحيان ... ولاول مرت سرت خلجات من حياة في وجه ام سعاد . ولقد كان وجهها يرتدي قناع موت لهذا المجرى الذي سلكته الامور . غير انها حين سمعت الخليفة نفسه يقترح على ابنتها الزواج تهلت وآمنت بما تقوله الحكمة : لا تكرهوا شيئاً لعله خير لكم . وهتفت : معاذ الله ان تخالف ابنتي مشيئة امير المؤمنين .

ولم يستطع نصر السكوت وقد احس بقلبه كأنه كرة

تدحرج في هوة ، فقال :

لا تجعلني والامثال تضرب بي كالمسجير من الرضاء بالنار!

لكن معاوية لم يكن يهّمه الا ان يسمع ما ستنتطق به الفتاة .

فلما رآها تعصر عينيها من الدمع قال لها مأخوذاً بالعجب :

- وما بك ، يا بنية .

اجابته : سيقتلني هذا الجمال الذي يطعم في كل من رآني

حتى امير المؤمنين . لم يبق الا الله عز جلاله ينقذني ، لكن احكامه مؤجلة التنفيذ .

قال لها معاوية وهو يتسم لبراعة العبارة :

- افهم ، اذن ، انك لا تقبليني بعملاً ، برغم ان عندي لك

القصور والحريير والجواهر والجاه .

- هو قلبي لا يقبل !

- ولم ؟

- لان الحب عنده اقوى من قصورك وحريرك وجواهرك

وجاهك .

- وتفضين ابن ام الحكم ؟

- سبق ان رفضته ... ان نصراً زوجي لا زوج لي إلاة .

ودارت نحو نصر وامسكت نفسها ان تطير اليه . ودار نصر

نحوها وامسك نفسه ان يطير اليها . ثم - وكأنهما اقتلعا - من

مكانيهما ! - اندفعا فتلاقيا في عناق صامت طويل .

ونظر معاوية الى ابن ام الحكم فقال له :

- لا يثقل عليك . رفضتني كما رفضتك ... دهاء شاء به معاوية

ان لا يجرح والبه كما جرحه من قبل في نهاره . ووجد الفرصة

مؤاتية ليُبلغ ابن ام الحكم ، على الاثر ، خبيراً آخر على

الهامش ، فقال له : وأرى الاجدر بك بعد اليوم ان لا تعود

الى البادية ، فيتحدث الناس بان أعرابية كرهتك زوجاً . فدار

البهر بابن ام الحكم ورنتح به ترنيحاً ومعاوية يتسم له ابتسامته

الماكرة .

ولم يلاحظ احد الا بعد وقت ان ام سعاد تهجد هي الاخرى

في وقفتهما وتشعب كمن يوشك ان يُغنى عليه . فقد صعدت

صعوداً حتى صاهرت الوالي ، وكادت تصاهر امير المؤمنين . يالها

من ذروة ساحة ذاهبة في عنان السماء ! ثم هيا هي تسقط عنها
سقوطاً في فراغ سحيق . فُسخ زواج ابنتها بالوالي . وعزل
الوالي . وما صاهرت الخليفة . وقام بينها وبين ابنتها ونصر جدار
من الكره الى الابد . لو بقي لها حتى زوجها الشيخ الضعيف !
لكنه مات قهراً وكنمت موته .

واسرعت سعاد الى امها تسندها ان تنهار ارضاً ، وقالت
لمعاوية :

— سيدي ، لو تأخذ هذه العجوز فتضعها في مطبخك .

فضحك معاوية حتى بدت نواجذه ...

وامر نصراً وسعاداً ان ينصرفا بعد ان امر لهما بال لم يقبل
منه نصر الا ديناراً . واستبقى معاوية ام سعاد . أترأه وافق
ان يجعلها في مطبخه ؟ واستبقى ابن ام الحكم ، وما ندري هل
وجد له وظيفة اخرى في مطبخ الدولة ؟

وساعة خرج نصر ، ومعه سعاد ، الى عتبة القصر ، لقي الحارس
فدس في جيبه الدينار . ثم طلب جواده حيث ربطه على مرأى
من عين الحارس ، وحمل عليه سعاداً ، ثم امتطاه ولكزه .

قال لها وفي صوته نبرة المازح : خفت ان اكون اشتريت هذا
الجواد بما بذله لي ابن ام الحكم في سبيل طلاقك ؟ لا تخافي . ان
المظلوم يوزق حليفاً . لقد وهبه لي رجل يكره ابن ام الحكم .
وهو الرجل الذي ترك لي الناقة والبعير قبل زواجنا ، إن كنت
تذكرين . ونحن ماضون اليه في مكانه ، في واحة اقامها في
الصحراء ، فنبشره بفوزنا وعزل الوالي ، ونعيش معه ومع رهنه
في خدمة الزرع والضرع .

ومرث دقائق صمت حتى عبر بهما الجواد تخوم المدينة ودخلا
بين البساتين . فتوجل نصر وانزل سعاداً على ذراع ، وهو يقبض
على عنان الجواد باليد الاخرى .

وكانت اوراق الحور الخضراء عند مجاري المياه تضرب
اضطراباً خفيفاً في تنهدات النسيم . والمياه الجارية تزقزق زقزقة
رقية .

ثم ما أسرع ما غابت اصدااء اضطراب الاوراق ، وتوارى
وجع زقزقات المياه ، في هذه القبة التي الصقت شفتين مشتافتين
بشفتين مشتافتين ، وانغمضت عينين والهتين على عينين والهتين !
وتراخت يد نصر عن عنان الجواد الذي تقبض عليه . وسرح
الجواد يرعى العشب ابتعاداً عما لا يعنيه ...

خاتمة

اوغل نصر وسعاد في البادية لينصرفا الى هذه الواحة التي ارتأى عروة صاحب نصر ان يستنبت خضرتها من حبات الرمال ويجعلها مثلاً لانهاض الحياة في الصحراء من طور الى طور . لكن لم تلبث الواحة ان تلاشت كما يتلاشى سراب تفرق حيناً ، فاضمحل معها احلام عروة كما تضمحل احلام من يسبقون التاريخ او يبطئون عنه ، وبقيت البداوة عنصر تأخر وجوده في العرب الى يوم يلغبها العلم والحرية . كذلك انطوى كل اثر لنصر او سعاد ، فكأنهما ضاعا في غمار البادية كما تضيع حبات من رمل تعصف بهما الريح . حتى حديث الناس بقصة هذين الزوجين الحبيبين ما لبث حتى انقطع ، لان قصة اخرى احتلت المجالس وملاأت الافواه والاسماع وشغلت شرطة الدولة الاموية بتتبع ناصريها ومذيعيها . تلك قصة يزيد بن معاوية واريتب بنت اسحاق وزوجها عبد الله بن سلام . وما عسى ان تبلغ من الاهمية قصة بدوي وبدوية ، مثل نصر وسعاد ، فتثبت امام قصة يكون ابطالها يزيد بن الخليفة وعبد الله ابن سلام القرشي والحسين ابن الامام علي واريتب بنت اسحاق ... وكانت ليلة من ليالي الكوفة - وهي يومئذ من زواهر مدن العراق - أوى فيها جماعة الى منزل موحد الابواب ، فقعدوا في

حلقة سمر حول احد القصاص يصفون الى صوته هامساً في آذانهم
بهذه الحكاية همس محتس كالذي يخشى ان تكون في الزوايا
والجدران ، او على الكوى والمنافذ ، آذان تسمع واللسنة تنقل .
كان يقول :

وبعد ان علم معاوية بن ابي سفيان ، الداهية الحثيث ، ان علة
فتاد المدلل وولي عهده يزيد انما هي ارينب بنت اسحاق فهو
يشتبهها لنفسه ، كلف معاوية من يأتيه باخبارها ، فقبل له انها عند
عبد الله بن سلام تزوجها منذ مدة . فكيف السبيل اذن وقد
اصبحت ارينب في عصمة زوج ، وزوجها عبد الله من اصحاب
الوجاهة في قريش ؟ افسبيل الا ان يحمل عبد الله على طلاقها
بحيلة من حيل الدهاء التي يتقنها ابن ابي سفيان ؟
وعلى هذا ، انفرد خليفة بني امية ببنته عاتكة يوماً يفاضها
في شأن خطير . وبنته عاتكة هي التي يقول فيها الشاعر
متغزلاً :

وهي زهراء مثل لؤلؤة -

الفواص ميّزت من جوهر مكنون !

ثم خاضعتها الى القبة -

الخضراء نمشي في مرمى مسنون !

اما ذلك الشأن الخطير الذي فاض فيه معاوية ببنته فلا بد
لنا من انتظاره كي نعرفه من مساق الاحداث .

كتب معاوية الى عبد الله بن سلام يولّيه ولاية العراق .
وبعد اسابيع بعث يستقدمه الى دمشق . ويستقدم معه الشيخين
ابا هريرة وابا الدرداء وهما من المقدمين بين صحابة النبي .

حتى اذا حضروا جميعاً استقبلهم معاوية احسن استقبال ، وفاجأهم هذه المفاجأة العجيبة . قال :

— اني لم اولَ هذا الفتى القرشيَّ عبد الله بن سلام ولاية العراق الا لاني سمعت من شرف اخلاقه وقوة ذكائه ما ارتاحت اليه نفسي . وعندى بنيتة بلغت مبلغ النساء وقد فكرت في زوج لها فلم اجد اصالح من عبد الله . وارجو ان يكون في عملي سنة تواضع للخلفاء من بعدي . فكيف ترى يا ابا هريرة ويا ابا الدرداء وانتما صاحباً رسول الله ؟

فمكث ابو هريرة صامتاً . واجاب ابو الدرداء :

— نعم ما تفعل ، يا امير المؤمنين ، وانت تريد التواضع .

فالتفت معاوية الى عبد الله بن سلام وسأله :

— اراض انت ؟

فاجاب عبد الله : بل تمنيت ان يكون لي الف لسان فاشكر

لامير المؤمنين هذا الفضل العظيم .

— اذن ، فلم يبق الا ان اسألكما ، ايها الشيخان الجليلان ،

ان تدخلوا على عاتكة بنتي فتأخذا رأيها وتقنعاهما بالقبول .

وعبد الله ليس بمجهول لديكما . فتحدثنا اليها عن شيمه النبيلة .

وانكما، لموفتقان ان شاء الله .

ونفض معاوية فقاد الرجلين بنفسه الى عتبة المقصورة التي تقيم

فيها بنته .

ولم تقل عاتكة بنت معاوية الا خيراً حين ذكر لها ابو هريرة

وابو الدرداء ما جاءا من اجله . الا انها صرّحت بما طبعت عليه

نفسها من الغيرة العنيفة ، فهي لا تطيق ان يكون لزوجها امرأة

سواها . فان كان عبد الله متزوجاً فليس الى الرضى به من سبيل .
فخرج الشيخان ومعاوية وعبد الله بانتظارهما في الديوان .
فبادرهما الخليفة بقوله :

— ارى انكما لم تلبثا طويلاً .

فأجابه ابو الدرداء : لم نحتاج الى طول اقامة . كانت بنت
امير المؤمنين صريحة . فهي تقبل عبد الله زوجاً لها شرط أن لا تكون
له امرأة سواها . ونحن نعلم ان عبد الله متزوج . فقد أقفل الباب
اذن .

فرفع معاوية حاجبيه واتسعت عيناه الحادتان وقال مصطنعاً
الدهشة :

— أمتزوج عبد الله ؟

قال ابو الدرداء : نعم ، وعنده امرأة من خير النساء فضلاً
وعقلاً وجمالاً .

— وكيف العمل اذن ؟ احسب ان لا سبيل الى حل المشكلة .

وصمت معاوية وتلبد وجهه فعل بمثل متقن .

وأطرق عبد الله بن سلام مفكراً . سيستاء معاوية فيعزله عن
ولاية العراق بعد ايام . ثم كيف يحول شيء بينه وبين مصاهرة
الخليفة ؟ صحيح انه يحب زوجه ارينب ، لكن أمن الحكمة ان
يضعي في سبيلها بكل هذا الجاه والسلطان ؟ وما يقول عنه الناس ؟
سيكبر بعضهم عمله اذا وفى لارينب . وهؤلاء هم رواة القصص
العجيبة والشعراء . غير ان عامة الناس سيعتقدونه غيباً من
الاغبياء .

وما هي إلا رفة جفن حتى حرك عبد الله بن سلام شفتيه

قائلاً :

— لا بأس ، اطلق زوجتي . وسيعوض الله اربنب من هو خير مني .

فبدت علائم الاضطراب على ابي الدرداء . وحمد وجه ابي هريرة . لكن لم يكن لهما ان يقولوا شيئاً . اما معاوية فتظاهر باللامبالاة وقال لعبدالله :

— ذلك اليك . وأظن بنتي سيسرها ان تعلم انك طلقت زوجك في سبيلها .

وانفض المجلس .

وفما كان عبدالله بن سلام يسعى في طريقه راجعاً الى العراق ، وهو يحلم احلام الجاه والسلطان ويصرف عن ضميره عبثاً ثقيلاً جثم عليه ، كان ابو هريرة وابو الدرداء في مكان ما من دمشق يتبادلان الحديث . قال ابو هريرة :

— اظن معاوية يبيت امرأ ، يا ابا الدرداء ، وقد دفع بهذا الفتى المسكين الى طلاق زوجته .

— وإني لاظن ما تظن . غير أنني لم استطع ان اهتدي الى قصد معاوية . هل قدّرت شيئاً ؟

— كلا ! فأنا في سرداب من الحيرة لا يلوح لي بصيص من ضوء . ومع ذلك فقلبي يحذرنني . ولست اريد ان اشهد امرأ قد تكون فيه ريبة فيقال اني شريك فيه . سأحيد بنفسني عن هذا الامر .

— لئن اخترت الحياء اليوم فقد اخترته من قبل . أفما كنت في وقعة صفين تحضر مجلس علي ثم تنتقل الى معاوية وقت الطعام ،

ثم تلجأ الى التل اذا دار القتال وانت تقول : عليّ اعلم ، وطعام معاوية ادسم ، والقعود فوق التل اسلم ؟ اما انا فسأبقى ، يا أبا هريرة . ولا بد من ان ينجلي هذا القصد الذي يبيته معاوية . وعلى هذا افترق الشيخان .

ولبت معاوية في قصر الحضراء يتسم في سرّه ابتسامه الظفر ، الا انها ممزوجة ببعض القلق . لكنه تلقى بعد ايام كتاباً من واليه على العراق ففضّه وقرأ ما فيه بلهفة . واذا بعبد الله ينبئه انه طلق زوجته فور وصوله واصبح على استعداد لعقد الزواج الجديد . هنا ابتسم معاوية ابتسامه الظفر المطمئنة التي لا يشوبها اثر من قلق .

وارسل يستدعي ابا هريرة واما الدرداء الى حضرته . فاقبل ابو الدرداء وحده معتذراً عن ابي هريرة . قال له معاوية :

— يا ابا الدرداء ، ان هذا الفتى عبد الله بن سلام قد طلق زوجته وكتب اليها كتاباً بالخبر . فادخل على بنتي قبلئها ان لم يبق مانع من قبولها اياه زوجاً .

فوقف ابو الدرداء واتجه الى مقصورة عاتكة بنت الخليفة وقص عليها النبأ . فما راعه الا ضحك اطلقته الفتاة ، احسن في غوره الشهامة والسخرية . فرفقت على صدره لحيته البيضاء وقال لها :

— ارى بنت امير المؤمنين عظيمة السرور بهذا الفوز الذي احرزته اذ قدرت ان تنتزع لنفسها رجلاً من امرأة اخرى . فتظاهرت بنت معاوية بالرزانة وقالت لابي الدرداء :

— عفوك، يا شيخى، لم تفهمنى . أظننى بهذا القدر من السذاجة ؟
 كيف اطمئن الى رجل كعبد الله سريع الطلاق ؟ وكيف آمن
 ان 'يشمت' بى امرأة اخرى كما اشمتنى اليوم بامرأته ؟ لا ، لا
 ارضى به زوجاً وانا اعلم موقع المرأة التى طلقها من قلبه ، واعلم
 انه لم 'يردنى' الا لحرصه على الولاية ومصاهرة الخلفاء .
 فدار ابو الدرداء الى باب المقصورة وخرج مصعوقاً لا يدري
 هل يجوز له ان يلوم هذه الفتاة التى جابهته اصدق مجابهة ؟ واسرع
 الى حضرة الخليفة ، فأقضى اليه بما كان ، وعلائم الاضطراب
 بادية عليه .

قال معاوية :

— ان هذه البنية شديدة العناد . ولست اعرف لها طباً او
 علاجاً . واذا اسفت لعدم زواجها بعبد الله ، فلن اكرهها عليه
 اكراماً . وعبد الله هو الذى افترح طلاق زوجته فهو المسؤول
 عن عمله . لكنني اعظم الحزن لما اصاب امرأته ، وقد سمعتك
 تذكر ان ارينب من خير النساء فضلاً وعقلاً وجمالاً ، وهذا ابني
 يزيد لا بد له من زوجة . فامض لساعتك فاخطبها له ، يا ابا الدرداء ،
 وابذل لها ما شئت من مهر . وسأمر فوراً بان تعد لك عدة
 السفر الى العراق .

فهرز ابو الدرداء رأسه موافقاً . وكان فى قلبه يقول :
 يا للداهية الحبيث !

وصل الصحابي الزاهد الى العراق فسمع اول ما سمع ان
 الوالي عبد الله بن سلام طلق امرأته ارينب بنت اسحاق وهو
 موعود بزواج عائكة بنت الخليفة ، الا انه تلقى كتاباً بالعزل !!

فما ملك أبو الدرداء أن تجتاحه موجة من غيظ . وما استطاع
إلا أن يحسّ أن معاوية إنما أراد أصلاً أن يغضب أرينب لابنه
يزيد . فعقد النية على أن لا يجتمع يزيد بأرينب ما دامت فيه
حياة !

ولكن كيف يصنع ؟

وهنا خطر له أن يستعين بالحسين بن عليّ . والحسين معارض
لمعاوية ، منافس لابنه يزيد .

واسرع الصحابيّ إلى الحسين ، فاحتفل به السبط لما رآه أبهج
احتفال . ثم تطرق بهما الحديث إلى مكر معاوية بعبد الله بن
سلام ، وإلى ذكر خطبة أرينب ليزيد .

وحرص أبو الدرداء بما وصف من مكر معاوية وفضل أرينب
وجالها أن يستفز نخوة الحسين وغيrote . فقال له الحسين :

— اذكرني لها أيضاً وأبذل لها من المهر مثل ما بذل ابن
معاوية .

وعلى هذا أنصرف أبو الدرداء قائلتمس مكان أرينب ودخل
عليها في منزلها . فما أبصرته حتى رأى الابتسامة تسرع إلى شفثتها .
لكنه رأى الدموع تترقق في عينيها . فقال لها :

— حقك ، يا ابنتي ، أن تدمعي وأن تبتمسي . فعبد الله بن سلام
ممن يؤسف لفراقهم . لكن لك العزاء العظيم في خاطبين أوجه
منه وأكرم : الحسين بن عليّ ويزيد بن معاوية . فاختاري أيهما
شئت .

أجابته أرينب بصوت ناحب :

— اي ، أبا الدرداء ، إنك صاحب رسول الله . فاختر لي بينهما ،

ولك عليّ عهد الله ان لا انزل إلا على رغبتك .

— يا ابنتي ! ما زلت كأنتي الساعة ارى رسول الله يقبل الحسين في ثغره وهو صغير . فضعي شفتيك حيث وضعها رسول الله ، إلا اذا كنت تشتهين عرشاً ، فيزيد ابن خليفة وولي عهد خليفة .

— قاتل الله العرش ، يا ابا الدرداء . وهل سحق قلبي إلا العرش فباعد بيني وبين عبد الله !

— اذن فانت تختارين الحسين .

وعقد لها في اليوم نفسه على الحسين بن علي . وطار الخبر الى دمشق . فثارت ثائرة معاوية . وتفجر غضبه على ابي الدرداء لعله انه هو الذي خذله . غير ان ابا الدرداء كان بعيداً . وكان معاوية ادهى من ان يعلن غضبه ويظهر الهزيمة على نفسه ، فقال : امرأة رُكبت ، فأردنا ان ندفع عنها النكبة ، فسبقنا الحسين الى هذه المكربة ، عافاه الله .

أما يزيد فأدرك ان لا دواء لهذا الجرح الذي حل به إلا النسيان الذي تسوقه الايام في ركابها .

بقي عبدالله بن سلام . وكان جرحه عميقاً طويلاً يقطر دماً ويمض نفسه مضاً شديداً . جرح حب ، وجرح كرامة ، وجرح خيبة في ما حلم من احلام الجاه والسلطان .

راح يندد بمعاوية . ولغطت بخبيره جميع الاراساط . غير ان ذلك لم 'يجده كثيراً او قليلاً ، وعلى الاخص بعد ان اصبحت امراته في عصمة رجل آخر لا حق له عليه .

وشامت المصادفة ان تأتي ساعة يتذكر فيها عبدالله ان له

قبل ارينب وديعة من نفائس الجوهر استودعها اياها ، ثم نسي
ان يستردها منها يوم الطلاق . أفكانت تلك مصادفة في الحقيقة ام
تدبيراً من غوامض الاسرار ؟

وانطلق عبد الله الى الحسين ينبئـه بالامر ، وهو موقن ان
ارينب ستجاهل وديعته لما سلف من قبح معاملته لها . فأخذه الحسين
وادخله عليها قائلاً :

- نسلم منها وديعتك كما سلمتها اياها يداً بيد .
وانسحب الحسين . فدخل عبد الله خجلاً مرتبك الخطى تدور به
الارض . والقى السلام مطأطئاً برأسه ، غارساً عينيه في موطئي
قدميه . وذكر لها طلبته والكلمات تلتصق بحلقه .

فطغت على وجه ارينب سحابة من شحوب واختلجت شفتاها .
لكنها لم تقل شيئاً ... نهضت تبحث له عن الوديعة . وكانت
تعرف مكانها بالضبط وتحرص عليها اعظم حرص ، لانها ترى فيها
الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تجمعها بعبد الله مرة اخرى .

شد ما كانت ارينب في سرها تتذكر هذه الوديعة وتسائل
نفسها : هل يعود من اجلها ؟ وقليلها يقول لها : سيعود ! لذلك
شعب وجهها من عنف التأثر واختلجت شفتاها اول ما بصرت
به يدخل عليها ويسلم ويلتمس وديعته . ومع هذا فقد استطاعت
ان تمسك على نفسها الوقار وتمشي الى حيث حفظت الوديعة بقدم
وزينة . ولا شك انها احست بعينه توتقبانها . فلما مدت يدها الى
غبار الوديعة اجتهدت ان لا تظهر عليها رعشة . وعادت تمشي
نحوه ووجهها جامد كأنه مقدود من حجر . وناولته الصرة على
شكل ما صرّها يوم سلمها اياها قبل الطلاق .

ركع عبد الله ووضع النمرة أرضاً وفضتها بصابع مرنجفة . ثم
حفن حفنة من الجواهر التي فيها ، يكاد لا يسي ما يفعل . وقال
لأرينب بصوت منسحق :

- خذي . خذي هذا جزء ما سهرت عليها وحفظتها هذه المدة .
ورفع اليها نظره . وكانت ما تزال واقفة مقابله بوجهها
الجامد . فتعلقت عيناه بعينيها اللتين صلتبتهما جفوة وقسوة فلاحتا
كأنهما من زجاج . قالت له بهدوء :

منذ متى عهدتنا ، يا ابن سلام ، نكبرث للجواهر ؟
فأحس بكل لفظة من الفاظها خنجراً يغوص منمهلًا بسين
اضلاعه . واشتد اضطراب كفيه كالأوراق في العاصفة ، حتى تساقطت
منهما الجواهر على الأرض .

ثم ما لبث أن سمع صونها نغمًا هادئًا جارحاً مقبلاً من بعيد :
- ولو أننا رضينا ، يا ابن سلام ، لكان لنا ما شئنا من هذه
الجواهر ، بل لكان لنا يوماً عرش منها فجلسنا عليه إلى جانب
ملك . لكننا لا نرمي بقلبنا وقلب من أحبنا على التراب لنطأهما
بالقدم مشياً إلى جاء أو سلطان ذاتي .

ولم يكن عبد الله ليجهل ما تعني أرينب . كان يعلم أنها رفضت
يزيد وآثرت عليه الحسين . وكان أعرف الناس بأنه قد طلقها طمعاً
بالجاء والسلطان لنفسه إذا تزوج بنت معاوية ... وخشي أن تتابع
أرينب كلامها فتزيده على جراحه جراحاً ، فقال لها بصوت ناحب :
- كفى ، كفى ، رحماك !

وعاد فأغرق في الصمت . وغشي عينيه غشاء من دموع .
ومرت بخاطره أطراف سعادة لا يرجو أن تؤوب . إلا أنه لم

يلبت ان رأى خلال دموعه عجباً ...

رأى عيني ارينب الزجاجيتين ترفتان هما ايضاً بالحنو والحنين ،
وتنديان بالدموع ، ويرسم فيهما ابتسام ذبيح . فلم يصدق . حال
نفسه بحلم حلاً راغداً في يقظة ناعسة .

وهنا رجع فدخل عليها الحسين كالمفاجيء ... ابصرهما على تلك
الحال التي تفت الكبد . فرحما وصاح :

- ربي اشهد انها طالق ثلاثاً . ربي اشهد اني جعلتها في عصمتي
ولم امسها .

ودارت الارض بارينب لنهوي بها على عبدالله . ووثب عبد الله
ناهضاً من ركعته وخفض بصره الى الارض حيث كانت قدما
امراته تطآن جواهره المبعثرة ...

انتهى حديث القصاص في تلك الليلة من ليالي الكوفة في
تلك الحلقة السرية من حلقات السمر ، وانقطع همسه المحترس . ولشد
ما كان على حق في احتراسه ، فان شرطة الدولة لم يلبثوا طويلاً حتى
تشموا ريحه وكشفوا عنه الستر فأخذوه فدفعوا به الى السجن .
ومعاوية عهدئذ يدنو من خاتمة هذا المطاف الطويل الذي
قطعه متقلباً في الولاية والملك ، متمرساً بالسياسة وطرقها المستقيمة
حيناً ، الملتوية احياناً .

فلما قرأ في ما رُفع اليه من حوادث العراق نبأ هذا القصاص
الذي يتلو حكاية الحسين وارينب وعبد الله ويزيد ، لم يملك في خلوة
ديوانه ان يعود الى نفسه ، وان تمر بخاطره ذكريات وعبر
وتأملات .

لقد عاشت في ذهنه حادثة ارينب وتوالت على ذاكرته

اجزاؤها وتفصيلها فتتم يقول :

— تلك امرأة اخرى علمتنا ان الحب اقوى ...

لكن ترى علام قال امرأة اخرى ؟ علام هذه « الاخرى »

تبدد عفواً من شفتيه بوحي من دخيلته اللاواعية ؟

وتجلت لحاطره صورة كانت يد الايام والليالي قد نسجت عليها

حجاباً كثيفاً من نسيان . تلك صورة سعاد ، صورة الفتاة الاعرابية

التي كانت اول من علمه تفوق قدرة الحب .

ورننت في اذنيه اصداء من ذلك التوبيخ الصارم الذي تناول

به يومئذ واليه على البادية ابن ام الحكم . ولم ينس انه حاول

يومئذ ان يحاسب نفسه بما حاسب به ابن ام الحكم . فهل صدق

حقاً في محاسبته نفسه ؟ وهل هو حفظ فاحسن حفظ الدرس الذي

ألقته عليه سعاد الاعرابية ان الحب اقوى ؟ ان كان قد فعل

مخلصاً ، فلم تورط اذن في حادثة اريب ؟ أفلم يحرك عواطف

دنيئة في عبد الله بن سلام ليجعل منه مطيعة طيعة لتنفيذ مأربه ؟

فكيف ساغ له هذا الاستغلال لما رسب في بعض قرارات النفوس

من خاسسات ، وهو الساعي في تنظيم دولة جديدة ؟

« كلا، كلا ! لقد اعوزك شيء على عظمتك ، يا ابن ابي سفيان ... »

قالها معاوية وهو ما برح ذاهباً مع الناملات ، مجتهداً في خلوة

ديوانه ان يتعمى سرّاً ذلك النعري المعنوي امام ذاته

وحدها .

وأحس كأن سنّ قلم من فولاذ ، احمي بالنار ، راح يحفر في

لوحة ذهنه سطرّاً على سطر من هذه الكلمات :

« انما اعوزك ، يا ابن ابي سفيان ، ان تدرك ان الحب اقوى ،

اقوى من الدهاء ، اقوى من استغلال الحساسات الراسبة في بعض قرارات النفوس . فأما حبك لفتاك يزيد ، فهل صح في يوم ان تسمى الانانية حباً ؟

« ولأنك لم تدرك ان الحب اقوى - حتى هذا الحب الصغير بين رجل وامرأة - فقد كنت اعجز من ان تدرك ذلك الحب الآخر الكبير : حب الناس . أفما بعثت في يوم تقول لابن ابي طالب : « الفاك بجموع لا يفرقون بين الناقة والجل » . ولو انك احببتهم لما رضيت لهم هذه الغفلة ، ولما اعتزرت بها صفة فيهم ، ولما اعجبك ان يكونوا كل مادة الغيبة تستعملها في البناء ، حتى بناء الجديد ، ان امكن ان يبني جديد ثابت بمادة غيبة . ثم ألم يسألك سائل يوماً عن احب الناس اليك ، فأجبت : هو من يحبني اشد تحبيب الى الناس ، وكان ينبغي لك ان تقول : هو من يعلمني حب الناس على اصح الوجوه .

« فحبب الناس يتم معنى هذا العقل والحلم الذي تحليت به وقلت انه افضل ما اعطي المرء . وحبب الناس يعظم ما قلته : « إن ألد الأشياء عندي غيظ أتجرعه » ، وإلا فانك منافق حين تتجرع الغيظ وتحلم وتعقل لا لحب بل لانتهاز الفرصة الاوفق .

« العقل سما بك الى فهم الضرورة التاريخية ، فخدمتها . وبذلك خدمت الناس ، لكن الى الامد الوجيز . فانك حين عجزت ان تحب حقاً لم يكن امامك مفر من ان تنتهي الى هذه المأساة الشعورية ، بل الآفة : آفة الملل التي لا يزكو معها عمل ، ولا تمتد منه في شرايين المستقبل تلك الروح المحمسة الملتهبة التي تكفل استمرار العمل وحيورته الدائمة من عظيم الى اعظم .

« الملل ! ١ يا لهذا السوس الناسخ الذي يقوّض الدعائم .
 » ولكن كان الحب أقوى ، يا معاوية ، لو اخذت به ! »

١ خطب معاوية قبل مرضه الاخير فقال : « قد طالت امرني عليكم حتى مللتكم
 مللتعوني ، وتميت فراقكم وتميت فراقني . »

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الثامن من كانون الثاني
سنة الف وتسعمائة وخمسين .